قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٠﴾

التفسير: أي يا محمد، قلْ للقوم إن الله وحده يستحق كل نوع من الحمد إذ بعث أنبياءه لهداية الناس في كل عصر. فبعث موسى لهداية الناس في عصره، وبعث داود وسليمان في زمنهما، وأرسل صالحًا في عصره، ولوطًا في عصر آخر. ثم إنه تعالى لم يحرم أحدًا من هؤلاء المصطفين الأخيار من نصرته وتأييده بل شملهم بالسلام دائمًا وسيشملهم إلى الأبد. فأخبروني الآن أيها الناس، آلله الذي حمى عباده وكتب لهم النصر والغلبة وأنـــزل وحيه لهداية الناس خيرٌ أم الآلهة الباطلة التي يهلَك عَبَدَتُها دائمًا والتي لم تبعث قط رسولاً أعلن للناس أني قد أُرسلتُ لهدايتكم من قِبل هُبُل أو اللات أو مناة، وأني سأكون غالبًا على أعدائي.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ يبين أن الله تعالى يشمل عباده المصطفين الأخيار بالسلام دائمًا، ومن أجل ذلك أمرنا أيضًا أن نقول "عليه السلام" عند ذكر اسم أحد الأنبياء.

ولكن الذين يجهلون الحقائق يعترضون على مثل هذه الأدعية قائلين: لماذا أُمرنا أن ندعو لنـــزول السلام على الأنبياء مع أنهم يعيشون في ظل رحمة الله تعالى حتمًا؟ ولا يدري هؤلاء المعترضون أنه مما لا شك فيه أن الأنبياء يعيشون في ظل رحمة الله تعالى بعد وفاتهم، إلا أن ثمة أمرًا هامًا يُحتّم علينا الدعاء بنـــزول السلام عليهم دائمًا بعد وفاتهم أيضًا، وهو أنهم يخلفون وراءهم ثروة روحانية كبيرة جدًا. والثروة المادية التي يتركها المرء وراءه لو وقعت في أيدي أناس غير مؤهّلين وضاعت فيكون الضرر محدودًا جدًا، ولكن الثروة الروحانية التي يتركها الأنبياء وراءهم لو وقعت في أيدي أناس غير أكفاء فاتّخذوها سببًا للضلال، فلا يزال الناس يضلّون قرونًا وأحقابًا؛ ولذلك كان لزامًا أن يتم الدعاء لهم على الدوام. لقد تركوا هذه

الثروة ليستنير بها الناس ويهتدوا، ولكن الذين يخلفونهم لا ينالون من ثروتهم نورًا وهدىً، بل يَضلّون بها ويُضلّون الآخرين.

فمثلاً ترى أن بني إسرائيل يتهمون موسى وداود وسليمان ولوط – عليهم السلام – بأنواع الذنوب والمعاصي (الملوك الأول ١١: ٣، صموئيل ١١: ٢-٢٧، تكوين ١٢: ١٣-١٩، تكوين ١٩: ٣١-٣٥). وقراءة هذه الأمور تؤثر سلبيًا على أصحاب الطبائع الضعيفة، حيث يقولون ما دام الأنبياء قد ارتكبوا الآثام والمعاصي فما الحرج إذا فعلنا مثلهم؟

أما المسيحيون فلا شك أنهم يدّعون بأفواههم عصمة عيسى عليه السلام عن الإثم، ولكنهم لا يتورعون عن اتهامه أيضًا بالإثم في الأمور الجزئية؛ فقالوا مثلاً أنه عليه السلام أخذ حمارًا وظلّ يسير عليه هنا وهناك بدون إذن صاحبه (مرقس ١١ ومتى ٢١)، وأنه كان يسبّ الناس ويشتمهم ويسميهم كلابًا وخنازير (متى ٧: ٦، ومتى ٢٥: ٢٦، ومتى ١٢: ٣٩)، وأنه صار – والعياذ بالله – ملعونًا بموته على الصليب حاملاً ذنوب الناس، وأنه مكث في الجحيم ثلاثة أيام (رسالة بطرس الأولى ٣: ١٨-٢٠)، وأنه أهلك قطعان الخنازير بدون أن يدفع ثمنها لأصحابها (متى ٨: ٢٨-٣٢، ومرقس ٥).

أما الهندوس فبرغم أنهم يعتبرون "كرشنا" و"رام شندر" من أنبيائهم، لكنهم ينسبون بدون خجل إلى "رام شندر" معاملة غير إنسانية مع زوجته "سيتا" مما يستحيل أن يصدقه المرء بالنظر إلى صلاح هذا الإنسان العظيم وورعه. وأما "كرشنا" فيقولون أنه كان يسرق الزبدة من بيوت الآخرين ويأكلها، ومع ذلك كان نبي الله تعالى! (رامائن اتركاند (أردو)، الحصة ٧ ص ٩٧٩-٩٨٠ سرك ٥٣-٥٤: سيتا جي كي جلا وطني)

إذًا فبرغم أن الأنبياء هم وسيلة انتشار النور والهداية في العالم إلا أن أشياع الشيطان يجعلونهم سببًا لشيوع الغي والضلال في الدنيا، ولذلك قد ركز الله تعالى في القرآن الكريم على نـــزول السلام على أنبيائه خاصة، حتى إذا مر الناس على ذكرهم دعوا الله تعالى بهلاك أصحاب الفتنة الذين ينشرون الضلال باسم الأنبياء، فتفشل محاولاتهم الخبيثة.

ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال في مرض الموت في ساعاته الأخيرة وهو يتقلب يمينًا وشمالاً في كرب شديد: "لعَن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" (مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المسجد على القبور)، ذلك لأن الناس لو بدأوا السجود لقبور الأنبياء لم يبق التوحيد في العالم، بل انتشر الشرك بكل قوة. إذًا، فهذه هي الحكمة وراء دعاء نـــزول السلام على الأنبياء.. أي أن ينشر الله أنوارهم وبركاتهم على نطاق أوسع ويدمر أصحاب الفتنة الذين يدمرون ثروتهم الروحانية.

أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

حدائق: جمعُ حديقة، وهي البستان يكون عليه حائط. (الأقرب)

بهجة: البهجة: الحُسن، ويُقال: هو حسنُ لون الشيء، وقيل: هو في النبات النضارةُ، وفي الإنسان ضحكُ أساريرِ الوجه أو ظهور الفرَح البتّةَ. (الأقرب)

التفسير: أي يمكنكم أن تجيلوا النظر في نظام الكون لتروا من ذا الذي خلق السماوات والأرض، ومن ذا الذي يُنـــزل الماء من الغيوم، فيُنبت به حدائق شتى في حين أنكم لا تقدرون على أن تُنبتوا شجرة واحدة منها؟ ثم فكِّروا فيما إذا كان الله الذي خلق نظام الكون خيرًا أم آلهتكم الزائفة التي بنفسها بحاجة إلى البساتين والمياه والسماء والأرض؟ أبوسعكم أن تدلّوا على إله مثل الله تعالى؟ كلا لن تقدروا على ذلك أبدًا. ومن المؤسف أنكم لا تعملون عقولكم وتتخذون شركاء مع الله بلا دليل ولا برهان.

علمًا أنه قد ورد ضمير المفرد للغائب ﴿خلق﴾ و ﴿وأنـــزل﴾ في بداية الآية، بينما ورد ضمير الجمع للمتكلم ﴿أنبتنا﴾ في آخرها. والحق أن من أكبر فضائل القرآن وكمالاته أنه يشير أحيانًا بكلمة وجيزة إلى مفاهيم عظيمة، وهنا أيضًا لم ينتقل القرآن من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم بدون حكمة، إنما لفت بذلك الأنظارَ إلى أمر عظيم، وهو: أن المرء إذا أعمل فكره في خلق السماوات والأرض وظاهرة نـــزول المطر من السماء وخروج أنواع الخضار والزروع والبساتين به، تجلّتْ له قدرة الله وجلاله وجبروته، فلا يعتبر اللهَ تعالى غائبًا عنه بل يراه ماثلاً أمامه، وقد أدى القرآن الكريم هذا المفهوم العظيم بنقل ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم: ﴿أنبتنا﴾، وكأن الله تعالى يتجلى على عبده عيانًا ويعدّد عليه مننه وأياديه ماثلاً أمامه. فثبت أن انتقال ضمير الغائب إلى المتكلم ليس خطأً بل هو يدل على إحدى مزايا القرآن ومحاسنه.

هذا، وإن الله تعالى قد أشار هنا إلى الخَلق الروحاني من خلال ذِكر خلق العالم المادي، مبيّنًا أنه يوجد في العالم الروحاني نظام مماثل لنظام خلق السماوات والأرض ونـــزول الأمطار من السحب في العالم المادي، فإن بعثة الأنبياء تماثل المطر المادي؛ فكما أن المطر المادي يهطل من السحب عند الحاجة أي حين يكون الناس في كرب عظيم من شدة القيظ واحتباس الهواء، ويتلهف كل إنسان وحيوان للماء البارد العذب الفرات، وتحنّ الزروع إلى قطرات الماء لتخرج خضرتها ونباتها، وعندما يرى الناس المطر يبتهجون جدًّا بأنه قد حان الأوان لتتحقق آمالهم ولتصبح زروعهم مخضرة نضرة. كذلك يظهر الأنبياء في الدنيا عند الحاجة حين تشتد المعاناة وتطول جراء الظلمة الروحانية، فيشفون غليل العالم العطشان بأنفاسهم القدسية ويُجرون أنهار العلوم والمعارف التي تُنبت بساتين روحانية عظيمة تسرّ العيون وتجلب السكينة إلى القلوب. بيد أن المطر الذي هو فضلٌ إلهي كبيرٌ؛ إذ لولاه لهلكت الزروع وجفت الآبار، يكون مصحوبًا ببعض الأذى والمعاناة أيضًا؛ فمثلاً في حالة نـــزول المطر إذا أراد المرء حضور المسجد أو إحضار شيء من السوق فلا بد له أن يعاني من الوحل الذي يسببه المطر في الطريق، أو إذا كان أحد لم يقم

بترميم سقف بيته قبل نـــزول المطر فسوف يتأذى حين يتقطر سقفه بالماء، وإذا لم تكن عند فلاح حظيرةٌ للدواب فسيضطر ليربطها داخل البيت عند نـــزول المطر في الشتاء وقايةً لها من البرد، فيعاني من عفونة بولها وروثها. ثم إن المطر يكون مصحوبًا بالظلام، وأحيانًا بالرعد الشديد الذي ترتجف له قلوب الأطفال وضعيفي القلوب من الكبار، بل يقتُلهم أحيانًا. كما يلمع البرق في السحب ويسقط أحيانًا على بعض الناس والدواب ويقتلهم. وكل هذه جوانب سلبية للمطر رغم أنه فضل كبير من عند الله تعالى. ولكن بالرغم من كل هذه الأشكال العديدة من المعاناة التي يكتنفها المطر، فإن الناس لا يُبالون بها مطلقًا، إذ يعرف الجميع أنه إذا نـــزل المطر فلا بد من الوحل أيضًا. فهل في الدنيا فلاح يظن أن لن يكون عند نـــزول المطر بلل على الأرض ولا وحل ولا رعد ولا برق. كلا بل إن الجميع يعرف هذه الأمور السلبية في المطر ومع ذلك يدعون الله تعالى بنـــزوله. فلماذا يدعون له يا ترى؟ إنما ذلك لأنهم يعلمون أن نفع المطر أكبر من ضرره، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾(البقرة:٢٠).. أي أن في المطر الذي ينـــزل من السحب منافع وبركات كثيرة، كما يكون فيه بعض المعاناة والضرر والرعد والبرق أيضًا.

والحال نفسه بالنسبة لبعثة الأنبياء، إذ تكون فيها بركات كثيرة كما يصحبها بعض المعاناة أيضًا، وكما أن الناس لا يستغنون عن المطر رغم ما فيه من عناء وضرر، كذلك لا يمكن الاستهانة ببعثة الأنبياء خوفًا مما فيها من المعاناة، لأن الناس سيعرفون منافع تلك المعاناة يوم القيامة التي تظهر فيها النتائج، مثلما يعرف الفلاح فائدة المعاناة التي تكون في المطر من ظلمات ورعد وبرق، إذ لولاها لما جنى الفلاح من زرعه يوم حصاده إلا حبوبًا قليلةً ناقصة النمو. ولكن إذا نـــزل المطر ونضج الزرع عرف الفلاح نفع الظلمة والرعد والبرق، إذ تصبح كل حبة بذرها سبعين أو ثمانين أو مئة حبة، فيأتي إلى بيته بغلال كثيرة، فيشتري بها الثياب ويغطي بها نفقات أخرى من أكل وشرب وتزويج أولاد وبنات. إذًا، فبرغم أن المطر يكون مصحوبًا بظلمات ورعد وبرق إلا أن الناس يدعون لهطوله، ولا يبالون بما فيه من ضرر

ومعاناة نظرًا لفوائده الجمة. والحق أن الله تعالى لو أعلن أنه لن ينـــزل المطر هذه السنة إلا إذا انـــزلقت قدم كل فلاح فيه عشر مرات لرأيت أن كل فلاح ينـــزلق عشرين مرة لينـــزل المطر. أو لو أن الله تعالى جعل قانونًا بأن المطر لن ينـــزل إلا إذا دوّى فيه الرعد عشرين مرة لقال الفلاحون: رب أَنـــزل المطر ولو دوّى فيه الرعد ثلاثين مرة.

وبالمثل تكون بعثة الأنبياء مصحوبة ببعض الأذى والمعاناة أيضًا، ولكن الذي يقدر هذه النعمة رغم ما فيها من معاناة فيصبح كالفلاح الذي قد يسقي المطر زرعه. باختصار لقد نبهنا الله تعالى بتشبيه بعثة الأنبياء إلى أن على المؤمن تحمُّل المعاناة التي تُصاحب بعثة الأنبياء بشجاعة. فإذا آمن بدين مرة باعتباره الدين الحق فلا يُبدي ضعفًا واستكانة مهما أُوذي ولو مُزِّقَ إربًا، بل عليه أن يظل مستمسكًا بدينه كما تستمسك النملة بالشيء ولا تنفصل عنه بأي حال. كان هناك شخص اسمه "ميانجان محمد الكشميري"، وكان جدي قد عيّنه إمامًا في المسجد الأقصى بقاديان، فكان يؤم الناس في الصلاة كما كان يقوم ببعض الأعمال في بيتنا أيضًا. وذات مرة بعث بعض الإخوة إلى المسيح الموعود عليه السلام هدية سمك، فأخذ "ميانجان محمد" السمك وبدأ ينظفه على طاولة كبيرة موضوعة خارج بيتنا. فذهبت مع بعض الأولاد نتفرج عليه، وكانت في يدي قطعة حلوى آكلها. وبينما أنا في ذلك وقعت يدي على الطاولة بدون أن أدري، فالتصقت نملة كبيرة بالحلوى، فلما وضعتها في فمي قرصت النملة شفتي، فحاولت التخلص منها حتى جذبتها بيدي، ولكنها لم تنفصل عن شفتي، فأخذ "ميانجان محمد" السكين وقطعها بها. هذا هو حال المؤمن الحق، فعلى المرء أن يتمسك بدينه كما تتمسك النملة بالشيء، ولا ينفصم عنها وإن قُطع إربًا. ذلك لأن زرع الإيمان لا يكون جاهزًا للحصاد إلا بعد موت الإنسان، ولو مات في هذا الكفاح فلا ضير، إذ يعني ذلك أن زرعه قد أينعَ قبل زروع الآخرين، وسيأتي بالغلال إلى بيته قبلهم.

وقد شُبهت بعثة الأنبياء بالمطر لسبب آخر أيضًا، وهو أن هطول المطر يؤدي إلى ظهور الخضرة بكل أنواعها، فيتسبب في نمو الثمار الحلوة والثمار المُرّة أيضًا مع أنه

مطر واحد. فمثلاً ترى أن قطرة المطر التي تُحلّي حبة العنب والمانجو وغيرهما من الثمار الحلوة، هي ذاتها تُمرِّر الثمار المُرّة، وتحمّض الثمار الحامضة، وتنمّي اللحم في جسم الإنسان وتعيد إليه النمو والنشاط، وتخضّر أنواع الكلأ، وتُنبت آلاف الأعشاب في البراري والغابات ووديان الجبال مما نعرف أسماءها ولا نعرف. وهذا بالضبط يحصل عند بعثة الأنبياء أيضًا، أعني أن هطول المطر الروحاني من السماء يؤدي إلى ظهور الخضرة بنوعيها، حيث يعيد الخضرة والنضارة إلى زرع الإيمان من ناحية، ويوقظ الكفر من سباته من ناحية أخرى فتقع صحوة بين أعداء الإيمان من جديد. فمثلاً كان رؤساء أهل مكة الذين كفروا بالنبي ﷺ هم نفس العرب الذين كانوا قبل بعثته ﷺ، ولكن لم يكن عندهم قبل ذلك نظام، أما بعد ذلك فبدأوا بمعارضته تحت نظام، حيث اتحدوا كلهم ضده باذلين كل ما في وسعهم ليحولوا دون انتشار دينه بل ليقضوا عليه. فما هو السبب وراء ذلك؟ إنما هو أن المطر الروحاني إذا نـــزل من السماء اخضرّت النباتات بكل أنواعها، ورفع الكفر أيضًا رأسه. ولكنا نرى أيضًا أن الناس لا يستشعرون من المتنبئين أي خطر، إذ لا يخاف الماعز من الماعز، إنما يخاف الماعز من الأسد. ولكن إذا ظهر النبي الحق هبّ الكافرون من سباتهم واستشعروا منه خطرًا شديدًا، ورأوا التصدي له ضروريًا؛ ولذلك ترى أن المعارضة المنظمة التي واجهها النبي ﷺ في زمنه أو المسيح الموعود عليه السلام في هذا العصر لم يواجهها أي متنبئ كذاب. لا شكّ أن فتنًا قد وقعت في زمن "الباب" أيضًا، ولكنها لم تكن إلا رد فعل على تصرفات "البابيين"، إذ بدأوا بقتل الناس، فعاقبتهم الحكومة على ذلك، بينما ظل عامة الناس صامتين و لم يتصدوا للبابيين (Baha'u'llah And The New Era: p. 32-33). ولكن عند ظهور المسيح الموعود عليه السلام ثارت كل الأمم والطوائف ضده وبذل كل واحد جهده لقمع الأحمدية. وهذا الشيء لا يشاهد عند ظهور مدّع كذّاب في العالم. فمثلا يعلن البهائيون نسخ شريعة النبي ﷺ (الكواكب الدرية: الجزء الأول ص ٢٢٠)، ومع ذلك يمشي بعض المسلمين واضعين أيديهم في أيدي البهائيين، ويقولون تعالوا ننسَ الخلافات بيننا، فأنتم ونحن كلانا على الحق، فلنتّحد ضد الأحمدية.

فثبت من هنا أن ماء المطر المادي كما يساعد على خروج الخضرة بجميع أنواعها، كذلك فإن نـــزول المطر الروحاني ينضّر الإيمان كما يوقظ الكفر أيضًا من رقاده. فمثلاً عندما بُعث المسيح الموعود عليه السلام في هذا العصر قامت جماعة مؤمنة مخلصة متحلية بالتقوى، فيها صحوة وطموح، ومن ناحية أخرى تجد صحوة في صفوف الكفر أيضًا. والله تعالى لا يتوقع من جماعات الأنبياء أن تنمو وتنهض كما تنمو الأعشاب المُرّة الضارّة من تلقائها عند نـــزول المطر المادي، بل ينبغي أن ينموا بسرعة أكثر منها ويُبرزوا جمالهم الروحاني بكل ما في وسعهم حتى يتضاءل أمامهم ما يدعيه الشيطان من حسن وجمال.

أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

شرح الكلمات:

رواسي: الرواسي: الجبالُ الثوابت الرواسخ. (الأقرب).

حاجزًا: حجَزه حَجزًا وحِجازةً: منَعه وكفَّه ودفَعه، والحاجز: البرزخ. (الأقرب).

التفسير: أي مَن ذا الذي جعل الأرض صالحةً للسكنى وأجرى خلالها الأنهار؟ وجعل الجبال كي لا تضيع مياه الأنهار؟ ثم جعل في الأرض بحارًا وجعل بين مياهها المالحة وبين مياه الأنهار العذبة حاجزًا.. بمعنى أنه تعالى جعل مياه البحار في انخفاض فلا تُفسد مياه الأنهار العذبة، كما جعل مياه الأنهار العذبة أقل من مياه البحار كثيرًا فإذا انصبت فيها لم تغير طعمها المالح؛ فكأنه تعالى قد جعل هناك حاجزًا دائمًا بين الماء العذب والماء المالح. هل يمكن أن يكون لمثل هذا الإله المدبر الحكيم شريك؟

كلا ولكن أكثر المشركين جاهلون فلا ينتفعون برؤية هذه الآيات العظيمة ويهيمون هنا وهناك كالعميان.

لقد نبه الله تعالى الناس بذكر نظام الكون هذا إلى أنه تعالى ما دام قد هيّأ لفوائدهم المادية كل هذه الأسباب العظيمة فكيف يمكن أن يُهمِل حاجاتهم الروحانية؟ ألا يعلمون أنه تعالى لو لم يجعل التضاريس والانخفاضات التي تجري فيها ماء الأنهار منكمشًا لغطّى ماؤها اليابسةَ كلها، فلم تصلح الأرض للعيش؟ كذلك لولا الجبال التي تدّخر الثلوج وتُمدّ الأنهار بالماء طوال السنة لما استطاع الإنسان العيش على مياه الآبار والغُدران والحِياض وحدها. والحال نفسه في العالم الروحاني أيضًا، فإن التدابير الإنسانية لهداية الناس هي بمثابة الآبار والحياض، فلا تساعد الناس إلا لزمن محدود ونطاق محدود، أما الهداية الدائمة التي تُشبه مطر السماء فتنـــزل من عند الله تعالى وحده، وهي التي تقدر على شفاء غليلهم الروحاني. وكما أن الجبال تحتفظ بذخائر كبيرة للخشب والعقاقير والأزهار والثمار التي لا بد للإنسان منها، كذلك لا بد لسد حاجاته الروحانية من وحي فيه ذخائر الهداية والرحمة الأبدية. وكما أن الله تعالى قد جعل حاجزًا بين الماء المالح والماء العذب فقد جعل بين الكفر والإيمان حاجزًا من الأدلة والبراهين أيضًا، فيُعرف الماء الروحاني العذب بعذوبته فورًا والماء الروحاني المالح بملوحته. إذًا، فلا يتخذ شريكًا مع هذا الإله المحسن ويتركه ويسجد أمام الأصنام إلا الخالي من العقل والفهم كلية.

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٣﴾

التفسير: أي يجب أن تفكروا أيضًا من ذا الذي يستجيب لدعاء الذين تحيط بهم المصائب فيدفعها عنهم، ومن ذا الذي يجعلكم ورثة الأرض؟ هل تجدون ندًّا لمثل هذا الإله المتصف بهذه الصفات الحسنة؟ كلا، ولكنكم للأسف لا تتعظون.

والمضطر هو من تحيط به المصائب من كل الجوانب، فلا يرى مخلِّصًا ولا يجد منقذًا إلا الله تعالى. وليس المضطر من يكون قلقًا ومضطربًا فقط، ذلك لأن القلق يدفع الإنسان أحيانًا للاندفاع إلى أي جهة بدون أن يعلم يقينًا أنه سيجد هناك أمانًا، بل قد يدفعه القلق للجري إلى مكان الخطر نفسه فلا ينجو منه. فاضطراب القلب وقلقه ليس من الاضطرار في شيء، وإنما الاضطرار أن ييأس المرء من كل مأمن ومن كل معين إلا طرفًا واحدًا. وكأن الاضطرار ليس أن يرى المرء النار في كل جهة فحسب، بل أن يرى أيضًا سبيلاً للخلاص منها في جهة ما موقنًا بأنه مكان محفوظ من النار.

لقد تبين من هنا أن الدعاء لا يُستجاب إلا إذا دعا به العبد ماثلاً أمام الله تعالى وموقنًا بأنه لا ملاذ له الآن إلا الله تعالى. وقد بيّن الرسول ﷺ حالة الاضطرار هذه نفسها في دعائه: "لا ملجأَ ولا مَنْجَا منك إلا إليك" (البخاري: كتاب الوضوء، باب النوم على الشق الأيمن).. أي يا رب لا ملاذ من العذاب أو من البلايا التي تأتي من عندك إلا أن آتي إليك يائسًا من كل واحد. هذه هي حالة الاضطرار، والمراد من قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أن الذي يدعوه تعالى موقنًا أن لا ملجأ له ولا مأوى إلا عند الله تعالى، فدعاؤه مُجاب حتمًا.

والحق أن هذا الشرط لم يوضع بدون سبب، إذ الواقع أنه برغم أن الله تعالى هو وحده علاج كل مضطر، إلا أن بعض عباده أيضًا يقدرون على إزالة اضطرار المضطرين بما أعطاهم الله من نعم. فمثلاً هناك شخص فقير يبلى ثوبه وليس عنده ما يشتري به ثوبًا جديدًا، فيراه أحد الأثرياء – وقد يكون هندوسيًا أو سيخيًّا أو مجوسيًّا أو جَيْنِيًّا[٥]– فيقول له: تعال أشترِ لك ثوبًا جديدًا فقد بلي ثوبك. لا شك أننا نؤمن بأن الله تعالى هو الذي ألقى في روع الثري أن يشتري للفقير ثوبًا جديدًا، ولكن الذي لا يكون إيمانه كاملاً يقول إن فلانًا ساعدني في اضطراري بدلاً من أن يقول إن الله تعالى أعانني. ولكن هذا الشخص الفقير لو أصيب بمرض شديد حتى

[٥] الجَيْنِيّ: هو أحد أتباع الفرقة الهندوسية الجينية التي تحرّم أكل لحم أي حيوان. (المترجم)

لم يقدر على الأكل والشرب والحركة من شدة الضعف، فلن يساعده الثري في هذه الحالة، بل سيساعده طبيب حاذق يترحم عليه برؤية حاله، فيقول: ليس عندك مال للعلاج، فتعال عندي فسأتولى علاجك ودواءك وسكنك أيضًا مجانًا.

فترى أن هذا الفقير إذا اضطر إلى شراء الثياب ساعده الشخص الثري، ولكنه حين اضطر إلى العلاج والدواء لم يستطع الثري مساعدته بل ساعده الطبيب.

وأحيانًا يؤخذ المرء في قضية مزورة يرفعها ضده بعض أعدائه الأقوياء حقدًا، فيجرّه إلى المحكمة دونما جريرة، ولكنه لا يملك مالاً لدفع أجرة المحامي، كما لا يقدر على الدفاع عن نفسه بنفسه، فيقع في ورطة من أمره، فيتقدم محامٍ رحيم ويقول له: أنا أتولى الدفاع عنك مجانًا.

فترى أنه لم يغن عنه هذه المرة ثري ولا طبيب، وإنما ساعده محامٍ.

وقد يكون عند المرء متاع كثير، فيمشي حاملاً إياه، ولكنه يرهقه إرهاقًا شديدًا، فيضعه على الأرض ثم لا يستطيع حمله ثانية، فيمرّ به فلاح قوي فيسأله عن سبب جلوسه في الطريق هكذا، فيقول: لا أقدر على حمل متاعي، فيحمل الفلاح متاعه. فترى أنه كان مضطرًا، ولكن لم يستطع أن يغني عنه هذه المرة ثري ولا طبيب ولا محامٍ بل ساعده أحد الفلاحين.

فثبت أنه يمكن أن تأتي على الإنسان حالات اضطرار مختلفة، فيساعده فيها أشخاص دون أشخاص. ولكن الله تعالى يقول هنا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾.. أي أنا الوحيد الذي يسد حاجة كل مضطرٍّ سواء كان جائعًا أو عاريًا أو ظامئًا أو مريضًا أو حامل ثقلٍ. إذا بلي ثوب أحد فيمكن أن يساعده ثري، ولن يغني عنه طبيب، وإذا مرض أحد فيغني عنه طبيب ولن يغني عنه محام، وإذا أُخذ أحد في قضية بدون ذنب فيغني عنه محام ولن يغني عنه ثري ولا طبيب. وإذا كان لا يقدر أحد على حمل متاعه فيغني عنه فلاح قوي، ولن يغني عنه ثري ولا طبيب ولا محام. أما الله تعالى فيقدر على سد كل حاجة لكل إنسان، وعلى مساعدة كل مضطر في أي ظرف. يمر المرء بحالات شتى من الاضطرار، فأنَّى لبشر أن يساعده في كل هذه الحالات؟ بل لن يغني عنه عندها أحد الملوك أيضًا. فمثلاً لو مرض إنسان مرضًا

شديدًا فلن يغني عنه قربُ الملك ولا خزائنه ولا جنوده، إنما يغني عنه الله وحده الذي هو قادر على شفائه من كل مرض. أو لو كان المرء يسافر منفردًا في برية، فيهاجمه ذئب أو أسد أو نمر مثلاً، فلن يغني عنه الملك مهما كان مقرَّبًا إليه ولو كان ابنًا له، كما لن يغني عنه الطبيب ولا الثري ولا المحامي وإنما يغني عنه الله تعالى وحده.

فثبت أن المرء لن يُعَدّ مضطرًّا ما لم يكن موقنًا بأن الله تعالى وحده قادر على أن يُغني عنه عند كل اضطرار، فإذا دعا الله تعالى مضطرًا أتاه بالفعل مهرولاً ونجّاه من كل أذى ومصيبة. بينما نجد في الدنيا أن المرء إذا أراد أن يستغيث بالملك ضد بعض الولاة والمسؤولين فإن الوالي أو المسؤول يهدده بنـــزع لسانه من جذوره لو رفع الشكوى ضده إلى الملك، فيتراجع عن عزمه خوفًا من أن يلقيه المسؤول في مشاكل أخرى. أما الله تعالى فيمكن أن يستغيث به المرء وهو يتأوّه في سريره ملتفًا بلحافه في ظلمة الليل بدون أن يعلم أحد من البشر ما يفعل وما يقول، فلا يخاف تهديدًا من مسؤول ولا منعًا من حاكم، بل يرفع صوته في بلاط الله تعالى من داخل لحافه مستلقيًا على سريره قائلاً: رب لقد ظلمني فلان، فانتقِمْ منه من أجلي. فلا يعرف الظالم أن الشكوى ضده قد وصلت إلى الملك، إذ لا يراه ولا يسمعه ولا يخطر بباله ذلك، فتصل دعوة المظلوم إلى العرش وتهزّه هزًّا.

فهذا هو السبب وراء قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.. أي من ذا الذي يأتي لنصرة العبد حين يتوسل إلى الله تعالى مضطرًّا حين لا يجد عنده مغيثًا ولا معينًا؟ إن الدنيا تكون غافلة عن هذا العبد، ولكن الله تعالى لا يكون غافلاً عنه، بل يأتي إليه هرولةً ويقول: ها قد جئت لنصرتك يا عبدي، فيعامله بلطف وحب وينجيه من كل أذى وكرب.

ثم يوضح الله تعالى أنه لا يُنعم على عباده بقدر محدود ولا يزيل كرب المضطر استجابةً لدعائه فحسب، بل ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾.. أي إنه يُهلك الظالمين المستبدّين ويجعل الضعفاء المظلومين خلفاءهم. ما يعني أن الله تعالى يُزيل مشاكل العباد بشكل فردي، كما أنه يُغيثهم بشكل قومي أيضًا حيث يأخذ الشعوب

المقهورة الضعيفة من الحضيض ويرفعها إلى أوج الرقي والرفعة، فيُصبح الطغاة المستبدّون صيدًا لآهات المقهورين. وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة في موضع آخر من القرآن الكريم أيضًا حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(يونس:١٤-١٥). والمراد من قوله تعالى: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: لننظر كيف تعملون في الدنيا وما إذا كنتم تُحافظون على الصلاح والورع في زمن حكمكم وقوتكم كما كنتم متحلين به حين كنتم ضعفاء مغلوبين.

لا شك أن دعاء المضطرّ يجعله مستحقًا لنعم الله تعالى، ولكن بقاءها واستمرارها يتطلب منه المزيد من الجهد والكفاح؛ فإذا قصّرتْ أمة في هذا الأمر وتساهلتْ حُرمتْ من تلك النعم.

الحق أن الله تعالى قد ذكر في هذه الآية نوعين من النعم: الفردية والقومية، وبيَّن أن الفرد إذا دعاه مضطرًا استجاب دعاءه وأزال كربه، بينما يقضي، بحسب قانونه الخاص بالأمم، على الشعوب الظالمة فيجعل الشعوب المقهورة خلفاءً لها. والتاريخ زاخرٌ بأمثلة ذلك. ويستشهد الله تعالى هنا بذكر هذه الأحداث والوقائع على وجوده تعالى ويقول: ترون، أيها الناس، أن يد الله تعالى هي التي تعمل وراء هذه الأحداث، ومع ذلك لا تتعظون للأسف، بل تسجدون أمام الأصنام معرضين عن أعتابه تعالى.

كما يتبيّن من هذه الآية أيضًا أن باب استجابة الدعاء مفتوح على مصراعيه لأهل كل ملة وطائفة على سواء، لكي يجعلهم يوقنون بوجوده ويدلهم على نفسه ويجذبهم إليه، بمعنى أن كل إنسان - أيًا كان دينه - إذا دعا الله تعالى مضطرًا استجاب الله لدعائه وفتح عليه سبيلاً وأزال كربه وأنـــزل السكينة على قلبه.

أتذكر أن هندوسيًا جاء إلى قاديان مرة وقال لي: لقد بعثني سيدي إليك لأسألك ما إذا كان هناك سبيل لجلب النور؟ و لم يخبرني الهندوسي عن سيده ومكان إقامته شيئًا، بل حاول إخفاء ذلك، فلما ناقشته عن هذه الأمور بإصرار أخبر أن سيده

مقاول كبير في بناء المباني وحفر القنوات وأنه يملك مصنعًا كبيرًا في الهند. فعلمت بعد أسئلة كثيرة أنه يقصد والد "سردار بلديو سنغ" وزيرِ الدفاع بالهند، حيث كان للرجل مصنع كبير بالقرب من مدينة "تاتا نغر". فقلت له: إن سيدك سيخي وأنت هندوسي، فما الذي يجمع بينكما؟ قال: لقد درسنا معًا في الطفولة، ونحن صديقان حميمان، وقد جعلني مسؤولاً في أحد مكاتبه، ويناقشني أحيانًا في مسائل الدين، وقد أمرني أن آتيك وأسألك ما إذا كان ثمة سبيل لجلب النور الآن؟ فقد ذهبنا إلى أولياء المسلمين ونسّاك الهندوس وكبار السيخ ولم نجد نورًا في أي مكان.

فقلت له: إن تعبير "جلب النور" ليس مصطلحًا إسلاميًا، وإنما يستعمله السيخ، إلا أنهم يعنون بالنور على ما يسمى عندنا الهدى، وإني مستعد لأَنْ أدلّه على سبيل الهدى؛ ومع أني لست مسيحيًا إلا أنني أؤمن بنبوة المسيح عليه السلام وصلاحه، وإنه يقول: "إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسرُ من أن يدخل غني إلى ملكوت الله" (متى ١٩: ٢٤). لقد أخبرتني أن سيدك مليونير، لذا فبرغم أني سأدلّك على طريق النور إلا أن سيدك لن يقبل هذا النور. فقال لي الهندوسي: كيف يمكن أن تسنح للمرء فرصة لجلب النور فلا يغتنمها؟ قلت: هكذا قال المسيح عليه السلام، ولذا فإني أرى أن سيدك لن يسعى لقبول النور رغم رؤيته. قال: عليك أن تدل على طريق النور وإني على يقين أن سيدي سيقبله. فدعوتُ سكرتيري الخاص وقلت: إن هذا الرجل لا يعرف اللغة العربية فاكتبْ له ترجمة بنجابية لقول الله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ فكتبها له. فقلت للهندوسي: قُلْ لسيدك أن يقرأ هذا الدعاء قبل النوم يوميًا، ولكن قبل الدعاء عليه أن يُعاهد الله تعالى بصدق القلب ويقول: يا رب سأقبل الهدى حيثما وجدته، لأنه إذا لم يعاهد الله ولم يحسن النية قبل الدعاء فلن يُريه نوره، لأن الله تعالى ليس كالمهرجين بل إنه لا يُري أي شيء عبثًا. عليه أن يكون صادق القلب عند الدعاء، أما إذا حصل منه شيء من التقصير عند العمل بما أراه الله تعالى من جراء الجبن وضعف الإيمان، فهذا أمر آخر؛ ذلك لأن السارق أيضًا يتوب أحيانًا عن السرقة بصدق القلب فيقبل الله تعالى توبته مع أنه يعلم أنه سينقض

توبته بعد أيام أو ربما في اليوم التالي ويعود إلى السرقة ثانية. كذلك سينظر الله تعالى إلى نيتك وقت الدعاء وإذا رأى أنك مستعد لقبول الهدى حيثما كان فسيريك النور ولن يُبالي لو صدر عنك أي ضعف أو تقصير فيما بعد.

فذهب الهندوسي وبعد اثنين أو ثلاثة أسابيع جاءت رسالة من عنده قال فيها: لقد تحقق ما قلت، فإن سيدي قد رأى نور الله تعالى فعلاً، كما تحقق قولك الآخر أيضًا إذ لا يجد في نفسه الشجاعة لقبول النور الذي رآه.

يبدو أن الله تعالى قد كشف على هذا الثري صدق الإسلام، ولكنه خاف أنه لو قبل الإسلام فإن ابنه يفقد الوزارة ويُدمَّر مصنعه، فما الفائدة من قبوله؟

باختصار إن الله تعالى قد جعل طريق الدعاء مفتوحًا لأهل كل دين وطائفة وعصر. فكل من يدعو الله تعالى بصدق في حالة الاضطرار – أيًا كان دينه ومذهبه– فإنه تعالى سيستجيب لدعائه حتمًا، ولكن المؤسف أن الناس لا ينتفعون من هذا الأمر، فلا يزالون سائرين في الطريق الخاطئ بدلاً من أن يسلكوا الطريق المستقيم.

أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٤

التفسير: واعلم أن المراد من ﴿البَرّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني الشعوب التي لا يوجد عندها شيء من وحي الله تعالى، والبحر هنا يعني الشعوب التي يوجد عندها الوحي الإلهي ولكنه قد أصبح كماء البحر أجاجًا نتيجة عبث الناس به. وقد أوضح القرآن الكريم هذا الأمر في آية أخرى حيث وصف الله تعالى زمن بعثة الرسول ﷺ بقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ﴾(الروم:٤٢).. أي لقد مسّت الحاجة إلى بعثة محمد رسول الله ﷺ لأن الأمم التي ليس عندها ماء الوحي وتسنّ لها القوانين بعقلها قد فسدتْ، كما فسدت أيضًا الأمم التي عندها ماء الوحي إذ أصبح أُجاجًا مثل ماء البحر فلم يعد صالحًا للاستعمال.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِه﴾.. أي من ذا الذي يرسل الرياح النَدِّية قبل السحب؟ هل هناك إله سوى الله يُرسلها؟ فثبت أن الله تعالى أسمى وأرفع مما يحمله الوثنيون من أفكار تافهة.

مما لا شك فيه أن الرياح المادية أيضًا دليلٌ على وجود البارئ تعالى، ولكن الحديث هنا عن الرياح الروحانية، والمراد من الرحمة هو بعثة الأنبياء، والمعنى أن الله تعالى ينفخ الحماس في قلوب الناس لقبول أنبيائه قبل بعثتهم، حيث يشعر القوم بضرورة مجيء نبي لإصلاحهم وإلا لا سبيل لإصلاحهم دون ذلك، فيكون هذا دليلاً على صدق المدعي المبعوث من عند الله تعالى. وبما أن أحدًا لا يُبعَث لإصلاح الناس من قبل الأصنام، هكذا يقوم النبي بدحض الشرك وإرساء التوحيد، مما يهيئ للناس دليلاً على أن الله ﷻ أحد وأنه متعال عن الشرك والوثنية.

لقد رأينا في هذا العصر أيضًا أنه قبل بعثة المسيح الموعود عليه السلام قد جعل الله تعالى كافة الناس – أيًا كان دينهم ومذهبهم – يعترفون بأن هذا الزمان بحاجة إلى المهدي والمسيح. فقد كتب الخواجة حسن نظامي بعد قيامه بسياحة الممالك الإسلامية وقال:

لقد وجدت كل المشايخ والعلماء الذين قابلتهم خلال رحلتي في البلاد الإسلامية ينتظرون الإمام المهدي بفارغ الصبر." (جريدة "أهل الحديث" عدد ٢٦ يناير/كانون الثاني ١٩١٢م)

وقام أحد المفكرين الأوربيين اسمه "مارس إندس" بزيارة البلاد الإسلامية وسجل انطباعاته كالآتي:

"إن دمشق وبيروت وبغداد ومكة وطهران والقاهرة وكذلك لندن وواشنطن كلها تنتظر نبيًا يأتي حاملاً لواء الإصلاح الاجتماعي." (مجلة "نگار" عدد يناير وفبراير/كانون الثاني وشباط ١٩٥١)

أما البروفيسور الأوروبي "مكينـــزي" فقال في كتابه في معرض الحديث عن أن المجتمع لا يبلغ أوج الكمال بدون الكُمّل من الناس:

"إننا بحاجة إلى مسيحٍ من أجل رقينا." (Introduction to Socialogy نقلاً عن كتاب مكاتيب إقبال ص ٤٦٢-٤٦٣)

وكذلك كتب "نواب صديق حسن خان" بكل حسرة وكرب:

"كان من المفروض وفق الحساب أن يظهر المهدي في بداية القرن الثالث عشر الهجري، ولكن القرن كله انقضى ولم يظهر المهدي، وقد حلّ علينا القرن الرابع عشر، فلعل الله يشملنا بفضله، فيظهر المهدي خلال أربعة أو ستة أعوام." (اقتراب الساعة ص ٢٢١)

وقد عبّر الشاعر الشهير "إقبال" عن هذه الحقيقة نفسها في شعره فقال:

"إن هذا العصر يبحث عن إبراهيم، إذ قد أصبح العالم معبدًا للأصنام، ولا إله إلا الله." (كليات إقبال (أردو) ص ٥٢٧)

حتى إن الشيخ المودودي نفسه يعترف قائلاً:

"إن معظم الناس يبحثون، لقيادة حركة دينية، عن رجل كامل يكون تجسيدا لكل الكمالات التي يمكن أن يتصورها كل واحد منهم، ويكون قويًا من جميع النواحي، ولا يوجد فيه أي نوع من الضعف. وبتعبير آخر إنهم يبحثون عن نبي في الواقع، وإن كانوا يُقرّون بختم النبوة بأفواههم، ولو تفوّهَ أحد ببقاء النبوة لنـــزعوا لسانه من جذره. فالحق أنهم ينتظرون نبيًا وليسوا براضين بأقل من ذلك." (مجلة "ترجمان القرآن" عدد ديسمبر ويناير/كانون الأول وكانون الثاني ١٩٤٢-١٩٤٣ ص ٤٠٦ - وجريدة "مسلمان" الصادرة في سوهدره بالهند عدد ٢٨ فبراير ١٩٤٣م نقلا عن جريدة "الفضل" الصادرة في قاديان عدد ٦ مارس ١٩٤٣م)

إذًا فإن الله تعالى قد جعل العالَمَ كله ينتظر مجيء المسيح والمهدي بفارغ الصبر قبل مجيء المسيح الموعود عليه السلام، وكانت هذه الرياح النَدِّية دليلاً على أنه قد حان الأوان لأن تغيم السماء بسحاب لينـــزل منه مطر غزير إرواءً للأرواح الظامئة وشفاءً لغليلها. ومن أجل ذلك قال المسيح الموعود عليه السلام ما تعريبه:

"يا عباد الله، تعلمون أن المطر إذا انقطع فترة طويلة أخذت مياه الآبار تغور وتغيب. فكما أن نـــزول ماء السماء يُؤدي إلى جيشان في مياه الأرض في العالم المادي كذلك يُنضّر ماء السماء – أي وحي الله – عقول أهل الأرض في العالم الروحاني. وكان هذا الزمن أيضًا بحاجة إلى الماء الروحاني.

وأرى لزامًا عليّ أن أبين للناس بصدد دعواي أنني قد أُرسلت من عند الله تعالى عند الحاجة تمامًا لأن الكثيرين في هذا العصر قد حذوا حذوَ اليهود، ولم يتخلوا عن التقوى والورع فحسب، بل أصبحوا أعداءً للحق كما كان اليهود في زمن عيسى، ومن أجل ذلك قد سماني الله المسيح إزاءهم. فلا أدعو أهل هذا الزمان إليّ فحسب، بل إن الزمان نفسه يدعوني." (براهين أحمدية (أردو): الجزء الخامس، الخزائن الروحانية المجلد ٢١ ص ٤٢٨)

إذًا فإن أهل هذا الزمن أيضًا قد شكلوا بتصرفاتهم دليلاً قويًا على صدق مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام بحسب قول الله تعالى: ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، فمن أراد فلينتفع من هذا الدليل.

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٥﴾

التفسير: أي أخبروني مَن الذي يخلقكم أول مرة ثم لا يزال يُعيد عملية الخلق هذه باستمرار، أو مَن الذي يرزقكم من السماء والأرض؟ هل هناك إله يستطيع أن يفعل هذا سوى الله القادر المطلق؟ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

اعلمْ أن قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ليس إشارة إلى بداية خلق الكون حين خُلقت الأرض وطبقاتها وما إلى ذلك، إذ لا أحد من البشر قد شاهد ذلك الخلق ولا يمكن أن يُقدَّم ذلك الخَلق دليلاً على وحدانية الله تعالى، وإنما المراد

من بدء الخلق هنا غلبةُ الأمم ومِن إعادة الخلق إحياؤها ونفخُ الصحوة فيها بعد زوالها. فكأن الله تعالى يقول هنا: لو أمعنتم النظر في تاريخ رُقي الأمم وزوالها لعلمتم أنه لم تحرز أمة الرقي والتقدم إلا بتأييد الله ونصرته، ولم تحيَ أمة بعد انحطاطها ثانية من تلقاء نفسها بل بالتدابير الإلهية.

لقد ذكر الله تعالى هنا غلبة الأمم بعد أن كانت في الحضيض ثم إحياءها ثانية بعد الزوال لينبّه المسلمين أنهم لن ينالوا الغلبة على الدنيا إلا بفضل الله تعالى، فعليهم أن لا يعزوا رقيهم إلى قوتهم أبدًا، وإلا ستذهب ريحهم ولن ينالوا الغلبة مرة أخرى بدون تدبير من الله تعالى. ومن المؤسف أن المسلمين نسوا هذا الدرس العظيم، فأصابهم الانحطاط وأصبحوا أُضحوكة عند الأغيار.

لا جرم أن الأفراد يولدون في الدنيا ويموتون أيضًا إذ لم يعش إنسان للأبد، ولكن فيما يتعلق بالأمم فبوسعها أن تعيش إلى الأبد لو أرادت. ومن أجل ذلك قال المسيح الناصري عليه السلام: "وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزِّيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد." (يوحنا ١٤: ١٦).. أي لا شك أن الموت مصير كل إنسان وبالتالي سأغادركم في يوم من الأيام، ولكنكم لو أردتم الخلود فاسألوا الله من فضله، فتكونون من الخالدين.

إذًا فليس بوسع الإنسان أن يخلد ولو أراد ذلك، أما الشعوب فإذا أرادت الخلود خلدت، وإذا لم تُرده ماتت. ولقد كتب المسيح الموعود عليه السلام أيضًا وهو يحثّ جماعته على هذه الحياة الخالدة فقال ما تعريبه:

"لا بد لكم من أن تروا القدرة الثانية أيضًا، وإن مجيئها خير لكم، لأنها دائمة ولن تنقطع إلى يوم القيامة. ولا يمكن أن تأتيكم تلك القدرة الثانية ما لم أغادر، ولكن عندما أرحل سوف يرسل الله لكم القدرةَ الثانية، التي سوف تبقى معكم إلى الأبد." (وصيت (أردو)، الخزائن الروحانية ج ٢٠ ص ٣٠٥)

والحق أن قوله عليه السلام "إلى الأبد" إنما يعني أن "القدرة الثانية" ستبقى معكم ما شئتم بقاءها، وستنالون الحياة الأبدية نتيجة القدرة الثانية. والمراد من "القدرة الثانية" صنوف التأييد الإلهي الذي يكون حليفًا للمؤمنين. كما تعني نظامَ الخلافة

التي يقيمها الله تعالى بنفسه ليمتد نور النبوة. فبوسع القوم أن يحظوا بالتأييدات الإلهية دائمًا لو أرادوها وجعلوا أنفسهم أهلاً لها، كذلك بإمكانهم أن يتمتعوا بنعمة الخلافة لو أرادوا ذلك وجعلوا أنفسهم أهلاً لها.

والحق أن الفساد إنما ينشأ نتيجة العقلية الممسوخة دائمًا، إذ من المحال أن يتخلى الله عن قوم وطريقة تفكيرهم سليمة، لقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١٢).. أي أن الله تعالى لا يغيّر سلوكه مع قوم إلا إذا فسدت قلوبهم. وهذا أمر لا يصعب فهمه على أي إنسان، ولكن الغريب أن الأمم تنسى هذا الأمر البسيط دائمًا فتهلك. لا شك أن الإنسان عرضة للموت، ولا لوم عليه لو مات، ولكن الشعوب لا تموت بالضرورة، بل بوسعها أن تحيا للأبد إذا أرادت، ولكنها تنسى مبادئ الحياة الخالدة وتلقى حتفها بنفسها. والحق أن الله تعالى كان قد أعطى المسلمين منهجًا عظيمًا بواسطة النبي ﷺ، ولو ظلوا عاملين به لعاشوا إلى الأبد، ولكنهم تركوا العمل به فماتوا. إن الدنيا تتساءل دائمًا وقد سُئلتُ أنا أيضًا مرارًا: لقد أعطى الله الصحابة تعليمًا عظيمًا فيه حلول لكافة القضايا والمشاكل الاجتماعية، كما قدم النبي ﷺ أسوته الحسنة عاملاً بهذا المنهج العظيم، فأين ذهب هذا التعليم، ولماذا تلاشى بعد ثلاثة وثلاثين عامًا؟ لقد كانت عند المسيحيين خلافة لا تساوي شيئًا إزاء خلافة المسلمين، ولكن الخلافة المسيحية لا تزال قائمة في شكل البابوات، أما المسلمون فقضوا على خلافتهم في ثلاث وثلاثين عامًا فقط. لا شك أن فئة من المسيحيين متمردة على البابوية، ولكن أكثريتهم تابعة للبابا، وقد انتفعوا بهذا النظام كثيرًا، ولكن الخلافة في المسلمين استمرت لثلاث وثلاثين سنة فقط ثم تلاشت وانتهت. لماذا؟

إنما سببه ذلك الفساد الذي تطرق إلى عقلية المسلمين وطريقة تفكيرهم. لو ظل تفكيرهم سليمًا لما فقدوا هذه النعمة. لقد انكشفت هذه الحقيقة عليّ من خلال إحدى الرؤى، حيث رأيت مرة أوراقًا قد كتب فيها بعض المصنفين أو المؤرخين ملاحظات باللغة الإنجليزية، ورأيت أنها مكتوبة بقلم الرصاص أو بالحبر الأخضر، ولكنها لا تُقرأ بوضوح. وقد تبين لي مما استطعت قراءته أنها تتحدث عن سبب

فساد المسلمين بعد الرسول ﷺ بتلك السرعة. لقد أنعم الله عليهم نعمًا عظيمةً وأعطاهم منهجًا ساميًا في الاجتماع والاقتصاد، ثم أراهم النبي ﷺ بأسوته كيف يعملون به، ومع ذلك فسدوا وسقطوا إلى الحضيض. برغم أن الملاحظات مكتوبة بالإنجليزية إلا أن الغريب أنها مكتوبة من اليمين إلى الشمال خلافًا للمعتاد، ومع ذلك تمكنتُ من قراءتها. وكانت إحدى الفقرات فيها كالآتي على الأغلب:

There were two reasons for it. There temperament becoming morbid and anarchical.

أي لقد فسد المسلمون لأنهم أصيبوا بمرضين: أوّلهما أنهم أصبحوا غير طبيعيين، وثانيهما: أنهم أُصيبوا بنـــزعة العصيان والتمرد.

ولما فكرتُ في الأمر وجدت أن كلا الأمرين صحيح. فالدليل على أنهم أصبحوا غير طبيعيين هو أنهم أخذوا يعزون رقيهم إلى كفاءاتهم الشخصية مع أنهم إنما نالوا الغلبة والرقي ببركة الإسلام والرسول ﷺ، ولم يكن لكفاءاتهم الذاتية دخل فيها. ويكفيك لمعرفة حالة أهل مكة قبل النبي ﷺ أن تعلم أن العرب كانوا يكنّون لهم الاحترام لسبب واحد فقط وهو سدانة الكعبة، ولم تكن فيهم ميزة أخرى تدعو الناس إلى إعزازهم وتكريمهم. ولم تكن الشعوب الأخرى أيضًا تحترمهم لكونهم حكامًا بل لكونهم سدنة البيت أو لكونهم تجارًا. وكانوا ضئيلي الشأن عند الشعوب الأخرى لدرجة أن الحكومات الأجنبية كانت ترى أنها قادرة على سحقهم في أي وقت تشاء. ومثاله هجوم والي اليمن على مكة لهدم بيت الله وقد ورد ذكره في القرآن الكريم باسم أصحاب الفيل. أما النبي ﷺ فلم يؤمن به خلال ثلاث عشرة سنة إلا قليل من الناس، ولكن في السنة الثامنة بعد الهجرة خضع العرب كلهم لنظامه، وقد أصبح الإسلام قوة كبيرة تحسب لها الدول الكبرى الحساب. كان العالم عندئذ منقسمًا إلى إمبراطوريتين عظيمتين: الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية. وكانت الأولى تحكم شرق أوروبا كلها وتركيا والحبشة واليونان ومصر والشام والأناضول، بينما كانت الأخرى تحكم إيران والعراق وأفغانستان وعدة مناطق روسية وبعض مناطق الهند والسند. وكان العرب

ضئيلي الشأن إزاء هاتين الإمبراطوريتين، ولكن بعد السنة الثامنة من الهجرة خضع العرب كلهم للرسول ﷺ. ثم بدأت أخبار اعتداء القبائل المسيحية الخاضعة للرومان المقيمة على تخوم الشام تصل إلى النبي ﷺ، فخرج بنفسه للقائهم، ولكنه علم أنهم لم يخرجوا لمحاربته، فرجع بدون أي حرب بعدما عقد معاهدات مع بعض القبائل. ولكنه ﷺ علم بعد فترة أن تلك القبائل قد بدأت تثير الفتن مرة أخرى، فبعث جيشًا تحت إمرة أسامة بن زيد ﷺ لقمع فتنتهم، فقام الجيش المسلم بعقاب بعض القبائل وعقد معاهدات كثيرة مع القبائل الأخرى (تاريخ الخميس: غزوة تبوك، والموطن الحادي عشر: سرية أسامة بن زيد). ولم تمضِ بعد وفاته ﷺ سنتان ونصف السنة حتى أخذ حكم العرب يمتد إلى المناطق المجاورة للجزيرة العربية، وبعد خمسة أعوام من فتح مكة اصطدم المسلمون بالإمبراطورية الفارسية واحتلوا بعض مناطقها، وخلال بضعة أعوام قضوا على الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية كلتيهما قضاء مبرمًا. ولا يوجد مثال واحد لمثل هذا الانتصار العظيم والانقلاب المذهل في تاريخ العالم كله. فمثلاً يذكر التاريخ نابليون، ولكنه لم يواجه أية قوة كانت أكثر منه عددًا وعتادًا، إذ كانت ألمانيا حينها مشتتة القوة تمامًا حيث كانت منقسمة إلى أربع عشرة ولاية صغيرة. لقد سئل أحد الرؤساء الأمريكان عندئذ عن رأيه في أوروبا فقال: هناك أسد وثلاثة ثعالب وبضعة فئران. وكان يقصد من الأسد روسيا، ومن الثعالب الحكومات الأوروبية الأخرى، ومن الفئران الولايات الألمانية المشتتة الشمل. إذًا، فكانت هناك قوة واحدة فقط وهي روسيا، ولكن نابليون لما اصطدم بها مُني بالفشل الذريع، كذلك لم يستطع غزو إنجلترا بل كان مصيره الأسر. وكان هناك شخصيتان قويتان أخريان: هتلر في ألمانيا، وموسوليني في إيطاليا، ولا شك أن كليهما قد حققا الرقي، ولكن كان مصيرهما الهزيمة. أما الملوك المسلمون فقد نال تيمورلنك من بينهم مُلكًا كبيرًا بسرعة، ولكن كان مصيره أيضًا مثل هؤلاء الأولين. لا شك أنه بلغ إلى شتى أنحاء العالم غازيًا منتصرًا، ولكنه فشل في هدفه لفتح العالم كله. فمثلا لم يستطع إخضاع بلاد السند كما أراد، ولما حانت منيّته قال: تتراءى لي تلال من جماجم البشر وتلومني.

إذًا فإن نبينا ﷺ هو المثال النادر الوحيد في كل التاريخ البشري منذ زمن آدم إلى اليوم حيث كان في البداية فردًا وحيدًا ثم لم يزل يحرز الرقي تلو الرقي حتى أخضع العرب كلهم في فترة وجيزة. أما بعد وفاته ﷺ فقد قضى أحد خلفائه على إمبراطورية كبيرة قضاء نهائيًا، بينما فتح خليفته الآخر باقي المناطق.

لم يحدث هذا الانقلاب العظيم إلا بنصرة الله تعالى، و لم يكن لعمل إنسان دخلٌ فيه. عندما توفي النبي ﷺ واختير أبو بكر خليفة له بلغ خبر وفاته ﷺ إلى مكة. وكان أبو قحافة والدُ أبي بكر حاضرًا في المجلس الذي جاء الرسول فيه بنعيه ﷺ. فأصيب الناس بصدمة كبيرة، وظنوا بسبب الأوضاع السائدة أن شمل الإسلام سيتفرق الآن حتمًا. فسأل والدُ أبي بكر الرسولَ: فماذا سيحدث الآن؟ فقال الرسول: لقد قامت الحكومة الإسلامية بعد وفاة النبي ﷺ مرة أخرى حيث اختار المسلمون خليفة له. فقال: من ذا الذي اختاروه خليفة؟ قال أبو بكر. فقال أبو قحافة في حيرة: ومن يكون أبو بكر؟ ذلك لأنه كان يعرف مكانة أسرته جيدًا، فما كان ليتصور أن العرب كلهم سيرضون بابنه ملكًا. فأجاب الرسول: أبو بكر الذي هو من القبيلة الفلانية. قال أبو قحافة: ومن أَي أسرة هو؟ قال: من الأسرة الفلانية. قال: ومن يكون أبوه؟ قال: أبو قحافة. فلمْ يملك أبو قحافة نفسه وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأضاف: اليوم أيقنت أن محمدًا ﷺ كان من عند الله تعالى. كان أبو قحافة من قبل مسلمًا بالاسم فقط، فأيقن قلبه بصدقه ﷺ في ذلك اليوم، إذ لم يكن أبو بكر من عائلة مرموقة حتى ترضى به العرب كلهم حاكمًا عليهم. فثبت أن الإسلام دين حق من عند الله تعالى.

ولكن عقلية المسلمين فسدت فيما بعد، فظنوا أنهم قد حققوا هذه الانتصارات بقوتهم، وأخذ بعضهم يقول: إن بني أمية هم مصدر قوة العرب، فالخلافة حقهم. وقال بعضهم: إن بني هاشم هم قوة العرب في الحقيقة، وقال بعضهم: إن بني المطلب هم قوة العرب، وقال بعضهم: إن الأنصار هم أحق بالخلافة إذ آووا النبي ﷺ في ديارهم. وهذا يعني أن المسلمين أصبحوا غير طبيعيين في سنوات قلائل

وزاغت طريقة تفكيرهم، وحاولت كل قبيلة منهم انتزاع الخلافة بالقوة، فأضاعوها.

وكان السبب الآخر لفساد المسلمين نـــزوعهم إلى التمرد والعصيان. كان الإسلام قد نفخ فيهم روح المساواة، ولكنهم لم يدروا أن المساواة تعني النظام، إذ لا مساواة بدون نظام عادل. ولكن لم تمضِ إلا سنوات قلائل حتى أخذت تغزو المسلمين فكرة أن الخزائن والأموال هي مِلكٌ لهم. فلما منعهم الحكام من ذلك بدأوا في قتلهم. هذه النـــزعة قد أفسدت المسلمين. كان عليهم أن يدركوا أن هذه حكومة إلهية وأن الله تعالى هو الذي أقامها، فالأفضل لهم أن يتركوها في يد الله تعالى. ذلك لأن الله تعالى قد صرح في سورة "النور" أنه بنفسه يقيم الخلفاء، ولكن المسلمين بدأوا يظنون أنهم هم الذين يقيمون الخلفاء. فقال الله لهم: حسنًا، إذا كنتم أنتم تقيمون الخلفاء، فإني أخرج من القضية وأرى كيف تقيمونهم الآن. فظلوا لمدّة يأكلون من الصيد الذي تصيّدَه الأوائل مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي – رضوان الله عليهم. ولكن الصيد المذبوح لا يدوم طويلاً، فمثلاً إذا كان عندك كبش حي أو شاة حية أو دجاجة حية فستمدّك باللحم والبيض دائمًا، ولكن الدجاجة أو الشاة المذبوحة لن تدوم طويلاً، بل ستفسد بعد أيام. كان المسلمون في زمن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي يأكلون لحمًا طريًا من الصيد، ولكنهم لما قضوا على الخلافة التي كانت روح حياتهم أخذوا يأكلون ما صاده آباؤهم بدلاً من أن يقوموا بصيد جديد طري، ولكن إلى متى يمكن أن ينفعهم الصيد القديم، إذ إن لحم الشاة المذبوحة ينتهي بعد أيام ولو كان عشرين كيلو غراما أو أكثر. هذا ما حدث مع المسلمين بالضبط، إذ انتهى ما كان عندهم من صيد قديم، فأصبحوا كالذي قيل فيه: رجَع بخُفَّي حُنين. لقد ذلوا وهانوا وضُربوا في كل مكان، وذهبت ريحهم وفقدوا مجدهم. إن المسيحيين لا يزالون يحافظون على خلافتهم الميتة حتى اليوم، ولكن المسلمين وأدوا خلافتهم الحية بأيديهم من جراء اتباع الهوى وثوائرهم النفسية العابرة وحبّ الدنيا وزخرفها.

لقد أقام الله تعالى اليوم بفضله الخلافة الراشدة في الجماعة الإسلامية الأحمدية بواسطة المسيح الموعود عليه السلام إحياءً للمسلمين مرة أخرى، فأوصي جماعتي وأقول: عليكم بالتمسك بالخلافة دائمًا، وتقديم التضحيات من أجل استمرارها، ولو فعلتم ذلك استمرت الخلافة فيكم إلى الأبد. إن الله تعالى لم يضَعْ الخلافة في أيديكم إلا ليقول: كنتُ وضعتُها في أيديكم، ولو أردتم دوامها لدامت فيكم. كان الله تعالى قادرًا على إقامة الخلافة بطريق مباشر من خلال الوحي والإلهام، ولكنه لم يفعل ذلك بل قال: سأقيم الخلافة بينكم لو أردتم أنتم دوامها، وكأنه تعالى يريد أن تقولوا بأفواهكم إنكم تريدون الخلافة أو لا تريدونها. فالآن لو سكتم أو لم تختاروا عند الانتخاب من هو أهل للخلافة، فستزول نعمة الخلافة من بينكم. فينبغي عليكم أن تتدبروا في أسباب دمار المسلمين دائمًا وأنقِذوا أنفسكم من الموت. يجب أن تكون عقولكم متّقدة وهِممكم عالية، ولا تكونوا كصخرة تحول دون جريان النهر وتغيّر مجراه، بل كونوا كالقناة التي تمرّر الماء بسهولة. كونوا كالنفق Tunnel الذي تتدفق منه الفيوض الإلهية التي وصلتنا بواسطة الرسول ﷺ وتجري إلى الأمام. فكونوا أُمة لا تموت أبدًا إذا أردتم النجاح. وإذا وقفتم كصخرة في طريق الفيوض الإلهية وصددتموها من الجريان، فاعلموا أن هلاككم قد حان، ولن يطول عمر أمتكم، بل ستهلكون كما هلكت الأمم السابقة.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾.. أي عليكم أن تفكروا مَن ذا الذي يرزقكم من السماء والأرض؟ هل هناك إله مع الله تعالى يمدّكم بالرزق؟

لقد بين الله هنا أن الأمم لا تزدهر ماديًا أيضًا إلا بفضل الله تعالى، ذلك لأن الأمة التي لا تجتهد لا تحرز رقيًا، والأمة التي لا تصدق القول لا تزدهر أيضًا، وأي شك في أن الله تعالى هو الذي يوفّق أفراد قوم لبذل المجهود وقول الصدق. إذًا، فإن ازدهار أُمة ماديًّا أيضًا لا يمكن أن يعزى إلى أحد سوى الله تعالى، وليس بوسع أحد تقديم دليل خلاف هذا، ولو حاول ذلك لرفضه التاريخ نفسه.

ثم إن الله تعالى قد لفت هنا أنظار البشر إلى حقيقة أخرى، وهي أنه تعالى ما دام يمدّكم بالرزق من أجل حياتكم المادية، فكيف يمكن أن لا يدبر نظام الرزق لحياتكم الروحانية التي هي غاية خلقكم؟ فإمداده إياكم بالرزق لحفظ أبدانكم واستمرار حياتكم يشكّل دليلا على أنه قد هيأ الأسباب لإصلاح أرواحكم ونمائها، وإن وجود الأنبياء والمصلحين ثبوت واضح للرزق الروحاني. فإذا كان المشركون صادقين في دعواهم أن أصنامهم تتمتع بقدرات إلهية فلم لا يعرضون للناس مبعوثين من عند أصنامهم كالأنبياء الذين بعثهم الله تعالى؟ وإذا كانوا لا يستطيعون تقديم أي مدّعٍ كهذا فثبت أن إشراكهم إياها بالله تعالى لا يستند إلى دليل بل هو هراء.

قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

شرح الكلمات:

ادّارَكَ: أصلُه تَدارَكَ، وتدارَكَ القومُ: تلاحقوا أي لَحِقَ آخرُهم أوّلَهم. (الأقرب)

عَمُونَ: العمون جمعُ العَمِي، وهو: ذو العَمى. (الأقرب)

التفسير: أي لا يعلم أحد في السموات والأرض الغيبَ سوى الله تعالى، بمعنى أن علم الغيب المطلق ليس إلا عند الله تعالى. أما هؤلاء الذين يعبدون الأصنام أو يدّعون معرفة أخبار الغيب بالنظر في النجوم وغيرها فلا يستطيعون حتى أن يخبروا متى يزدهر قومهم. يهلكون باستمرار ولا يعرفون متى ينجون من الدمار. أما محمد رسول الله ﷺ فكان في البداية فردًا وحيدًا وقد أصبح اليوم سيدًا للملايين. لو كانت آلهتهم تملك شيئًا من القوة أو لو كان هؤلاء يعلمون الغيب بالتنجيم فلِم لا

يخبرون عن زمن رقيهم؟ ولِم لا يقدرون على إيقاف ازدهار محمد رسول الله ﷺ الذي ينكر معرفة علم الغيب مما سوى الله تعالى. وحيث إنهم لا يستطيعون الإخبار حتى عن زمن رُقيهم فأي غيب يمكن أن يخبروا عنه؟

ثم يقول الله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾.. أي أنهم لا يعلمون مصيرهم، بل الحق أنهم يشكّون في رقيهم، وإنما يتخبطون خبط عشواء. فكما أن الأعمى يتحسس بيده هنا وهناك، فتقع يده على خشب تارةً، وعلى حديد تارة أخرى، ويجد الطريق المستقيم حينًا، ويسقط في حفرة حينًا آخر؛ كذلك فإن هؤلاء القوم يقولون ما هو صحيح رجمًا بالغيب حينًا، ويعتبرون الباطل حقًا في أحيان كثيرة، والفرق الواضح بينهم وبين أنبياء الله تعالى أن الوحي الذي ينـــزل على الأنبياء يكشف غيب السماوات والأرض، أما أتباع الآلهة الباطلة فلا يوجد بينهم من يكشف غيب السماوات والأرض. ثم إن النبي ينبئ عن زمن ازدهار قومه، بينما لا يقدر أيٌّ من ممثّلي الآلهة الباطلة أن يخبر متى تُعاد آلهتُه إلى الحياة ثانية، أي متى يقوم دينهم الوثني في الدنيا. لقد نفد علمهم بهذا الصدد، بل الحق أنهم أصبحوا يشكّون في رقيهم، إنما يتكلمون رجمًا بالغيب، بل الحق أنهم عميان بهذا الشأن، ولا يعرفون شيئًا عن مستقبلهم. بينما لا يزال نبي الله تعالى ينبئ عن انتشار وحدانية الله تعالى ويؤكد غلبتها، وبالفعل يحدث في الدنيا انقلاب عظيم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٨﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٩﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٧٠﴾

شرح الكلمات:

أساطير: الأساطير مفردُ الإسطار الذي مفرده سطر. وقال المبرَّد: الأساطير مفردها أُسطورة وهي ما يُسطَر أي يُكتَب (الأقرب)

التفسير: أي يقول الكافرون أإذا متنا نحن وآباؤنا وأصبحنا ترابًا فهل نُعاد للحياة مرة أخرى؟ لقد وُعدنا نحن وآباؤنا بهذا من قبل، ولكن هذا لن يحدث أبدًا، بل الحق أن كل هذه الضجة عن الحشر والنشر مجرد هراء وتقليد لأقوال السابقين.

يقول الله تعالى للكافرين في الجواب: سيروا في الأرض لتروا كيف كان مآل المجرمين. لِم لا تدركون أن الله الذي يُري المجرمين في الدنيا مشهدًا كيوم القيامة بعقابهم على جرائمهم، لا يُعجزه أن يُريهم مشهد القيامة في الآخرة؟ إن أكبر اعتراضهم هو أن الناس يتحدثون منذ آلاف السنين عن مجيء القيامة، ومع ذلك لم تأت القيامة حتى اليوم، وهذا دليل على أن كل هذه الضجة عن القيامة باطلة. عليهم أن يفكّروا فيما إذا كان الله قادرًا على إقامة القيامة أم لا. وإذا كان قادرًا على ذلك حيث يرون مشاهد كثيرة كمثل القيامة في الدنيا، فكيف يقولون لماذا لم تقم القيامة؟ فثبت أن قولهم مجرد هراء مثير للضحك. ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.. أي ألم تروا المجرمين على مر العصور كيف نالوا العقاب دائمًا، إذًا، فكيف ظننتم أنكم ستنجون من العقاب؟ وكما أن عقاب المجرمين وهلاكهم في الماضي وفي هذه الدنيا كان دليلاً على القيامة في الآخرة، كذلك عندما يحل بكم العذاب في الدنيا سيكون دليلاً لكم على قيامتكم في الآخرة.

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

التفسير: لقد أخبر الله من قبل أن الذين يعادون محمدًا رسول الله ﷺ لن ينجوا من العقاب، بل سيحل بهم حتمًا كما حلّ بالذين خلوا من قبلهم. وهذا الخبر قد أحزن النبي ﷺ كثيرًا إذ لم يُرد هلاك قومه ولا أن يكونوا هدفًا لغضب الله تعالى؛

ولذلك قد طمأن الله رسولَه هنا وقال: يا محمد، لا تحزن على هلاكهم إذ سيحلّ بهم لا محالة، ولكنهم لا يُهلَكون كلية بل سيتأخر هلاكهم التام بعض الوقت، وسيستمرون في نسج المؤامرات ضدك حتى ذلك الحين، ولن يألوا جهدًا للقضاء عليك، فلا تنـــزعج من مكائدهم إذ لن ينجحوا فيها أبدًا بل ستبُوء كلها بالفشل الذريع.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧٢﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٥﴾

شرح الكلمات:

تُكِنُّ: كَنَّ الشيءَ وأَكَنَّه: ستَره في كِنِّه وغطّاه وأخفاه. (الأقرب)

التفسير: أي أن هؤلاء الكافرين قد بلغوا من التمرد غايته إذ لا ينتفعون من المهلة الممنوحة لهم ولا يصلحون أنفسهم عاملين بأحكام الله تعالى، وإنما يسألون بكل جسارة: متى يتحقق وعد العذاب هذا إن كنتم صادقين؟ فقل لهم: قد يكون بعض العذاب الذي تستعجلون به قادمًا وراءكم.. أي أن ساعة هلاككم التام ستتأخر بعض الوقت ولكن لا بد أن تتعرضوا قبله لصنوف العذاب البسيط، فكُفّوا عن جسارتكم إذ لا قِبل لأحد بعذاب الله تعالى. أما سؤالكم: لماذا يتأخر العذاب الأكبر عنكم، فجوابه: أن الله تعالى لذو فضل على عباده، ويريد بهذه المهلة إنقاذ الذين يمكن إنقاذهم، ولكن المؤسف أن الناس لا يشكرونه بل يزدادون بسبب

المهلة كبرًا وشرًا، ولا يدرون أن ربك يعلم ما يخفون من نواياهم وما يعلنون من أعمالهم، ويرى أنهم يستحقون عليها العقاب، ومع ذلك يُمهِلهم رحمةً منه وفضلاً.

وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾

شرح الكلمات:

غائبة: من الغيب الذي استُعمل في كلّ غائب عن الحاسة وعما يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب. (المفردات)

التفسير: أي ما من شيء خفي في السماء والأرض إلا وهو محفوظ في علم الله تعالى حفظًا تامًا. والدليل على ذلك هو أن القرآن الكريم يبين أكثر الأمور التي يختلف فيها بنو إسرائيل، ويكشف الحقَّ للناس وإن كان مغطى تحت آلاف الحجب؛ فلا يملك العاقل أمامه إلا الاعتراف بصحة موقف القرآن وخطأ موقف الكتاب المقدس. فمثلاً ورد في الكتاب المقدس أن موسى عليه السلام لما ذهب إلى الطور لرؤية التجلي الإلهي انضم هارون في غيابه إلى المشركين، فصنع لهم عجلاً من الذهب وأخذ في عبادته. (الخروج ٣٢: ١-٦)، ولكن القرآن الكريم يعلن أن هارون عليه السلام لم يشرك أبدًا، وإنما هي تهمة شنيعة نجسة أُلصقت به، بل الحق أنه قد نهى بني إسرائيل عن عبادة العجل بكل شدة وقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾(طه:٩١).. أي يا قوم إنما أُلقيتم في الاختبار

بسبب هذا العجل وإن ربكم الرحمن الذي لا يزال يعينكم حتى قبل ولادتكم، وقد أنعم عليكم بنعم كثيرة، أما العجل فلن ينفعكم شيئًا، فلماذا تخرّون أمامه ساجدين؟

ثم بيَّن القرآن الكريم أن هذا العجل إنما صنعه شخص خال من الروحانية واسمه السامري.

لقد نـــزل القرآن الكريم بعد موسى بألفي سنة، بينما دُوّنت التوراة في زمنه بحسب المؤمنين بها، أفليس غريبًا أن الكتاب من زمن موسى يتهم هارون – عليهما السلام – والكتاب الذي نـــزل بعده بألفي سنة يُبرئ ساحته؟

ثم لو فحصنا هذا الأمر على ضوء علم النفس لوجدنا موقف القرآن الكريم هو الصحيح. ذلك أن التوراة تعترف بنـــزول وحي الله على هارون عليه السلام، فما دام هو من عباد الله المختارين فكيف يمكن أن يشكّ في وجود الله تعالى الذي يُنـــزل عليه الوحي؟ إذ لا يمكن أن يعبد العجل إلا الذي يشك في وجود البارئ تعالى، أما الذي يتلقى الوحي من الله تعالى فكيف يشك في وجوده تعالى؟ فثبت أن التهمة التي ألصقتها التوراة بهارون عليه السلام باطلة تمامًا بحسب علم النفس أيضًا، وهو أمر لا بد لكل عاقل من الاعتراف به.

وإن كبار علماء الإنجليز الذين أعدّوا الموسوعة البريطانية أيضًا قد تناولوا هذا الموضوع واعترفوا ببطلان قصة وقوع هارون في الشرك، بل استدلّوا من هذه القصة على إضافات كثيرة دُسّتْ إلى التوراة الأصلية فيما بعد. (الموسوعة البريطانية المجلد ٤ تحت: the golden calf، والمجلد ١٥ تحت: Moses)

كذلك تزعم التوراة أن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر كان عددهم مئات الآلاف (الخروج ١٢: ٣٧)، ولكن القرآن الكريم قال عن عددهم: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ (البقرة:٢٤٤).. والتاريخ وكذلك الأحداث المفصلة من التوراة نفسها تؤكد أنهم لم يكونوا مئات الآلاف بل كانوا عدة آلاف، إذ من المستحيل أن يجتمع مئات الآلاف من الناس من مختلف أنحاء مصر ويصلوا إلى بحر قلزم في فترة وجيزة، كما لا يمكن أن تتيسر الدواب لحمل هذا العدد الهائل من الناس. فإننا نعيش اليوم في

عصر الأجهزة والآلات، ولو أردنا نقل أربعين ألف شخص من مكان إلى آخر في وقت قصير بالباصات والقطارات لم نتمكن من ذلك، فما بالك بجمع ونقل مئات الآلاف على متن الخيول والثيران والحمير مسافة تبلغ مئات الأميال؟!

كذلك يقول القرآن الكريم والتوراة أيضًا إن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه، ولكن يتبين لنا عند الخوض في التفاصيل أن حُكم الذبح الوارد في التوراة يبدو بلا حكمة، بينما يبدو حُكم الذبح في القرآن الكريم أمرًا حكيمًا جدًّا. لا شك أن هناك اختلافًا بين المصدرين حول الابن الذبيح إذ ترى التوراة أنه إسحاق، بينما يقول القرآن الكريم إنه إسماعيل (الصافات:١٠٣)، ولكن هذا لا يغيّر من الأمر الواقع كثيرًا ألا وهو أن الله تعالى أمر إبراهيم بذبح ابنه فرضي بذلك. ولكن فيما يتعلق بالجانب الأخلاقي لهذه الواقعة فإن بيان القرآن الكريم يبدو معقولاً جدًا، بينما يبدو بيان التوراة بلا حكمة، حيث ورد فيها:

"إن الله تعالى امتحن إبراهيم فقال له: يا إبراهيم؟ فقال: ها أنا ذا. فقال: خُذْ ابنك وحيدك الذي تحبّه إسحاق، واذهب إلى أرض المُرِيّا وأَصعِدْه هناك مُحرَقةً على أحد الجبال الذي أقول لك." (التكوين ٢٢: ١-٢)

وتقول التوراة أن إبراهيم عليه السلام عمل بأمر الله تعالى، فربط إسحاق ووضعه على المذبح فوق الحطب، وأخذ السكين ليذبح ابنه، "فناداه ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم، إبراهيم؟ فقال: ها أنا ذا. فقال: لا تمدّ يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئًا، لأني الآن علمتُ أنك خائفٌ اللهَ، فلم تمسِكْ ابنك وحيدك عني. فرفَع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه مُمسَكًا في الغابة بقرنَيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش، وأصعده مُحرَقةً عوضًا عن ابنه." (المرجع السابق: ٩- ١٣)

وهذا يعني أن إسحاق عليه السلام لم يُذبح - بحسب التوراة - ماديًا ولا معنويًا. وهكذا تبدو القصة الواردة في التوراة - والعياذ بالله - أضحوكة مع إبراهيم من قبل الله تعالى، إذ ما الجدوى في أن يأمر الله تعالى إبراهيم بذبح إسحاق أوّلاً ثم يمنعه فيما بعد؟ إذا كان الله تعالى يريد أن يكتشف إيمان إبراهيم فقط، فالسؤال الذي يفرض نفسه هو: ألم يكن الله تعالى يعلم من قبل أنه إنسان بار صادق

الإيمان، وأنه يطيع أوامره دونما تردد؟ فما دام الله تعالى علم ذلك سلفًا فأمرُه بالذبح ثم نهيه عنه يصبح أمرًا عبثًا خاليًا من الحكمة.

ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن ذبح إسماعيل الذي أمر الله تعالى به إبراهيم إنما كان ذبحًا مجازيًا، إذ لم يرد أن يذبح ابنه بالسكين، بل كان المراد من ذبحه أن يُسكنه – لإعلاء كلمة الله – في مكان قفر لا يوجد فيه طعام ولا شراب. فيخبرنا القرآن أن الله تعالى قد منع إبراهيم من ذبح إسماعيل، ولكن لم يمنعه من العمل بالتأويل الحقيقي لمنامه وهو ترك إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، بل قد أمره الله تعالى بالعمل بحسب هذا التأويل، ونتيجة لعمله به تجد مكة حتى اليوم عامرة بذرية إسماعيل ويُعبَد الله وحده فيها ويُدعى الناس إليه سبحانه. إذًا، لم يكن قربان إسماعيل عليه السلام عملاً ظالمًا وحشيًا بل كان عملاً حكيمًا نافعًا للدنيا حتى اليوم، حيث يُرفع اسم الله تعالى من خلال ذرية إسماعيل عليه السلام في ذلك الوادي الخالي من الزرع، ويجتمع فيه مئات الآلاف من الناس في موسم الحج، وكل واحد منهم ينادي: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك".. أي اللهم إني حاضر لديك كما حضر إبراهيم، لا شريك لك ولا معبود سواك، ها إني حاضر لنشر وحدانيتك.

إذًا، فلا مقارنة بين القصة التي تحكيها التوراة وبين ما ذكره القرآن الكريم، إذ يبدو ما ورد في التوراة حُكمًا همجيًّا خاليًا من أي حكمة، فماذا عسى أن ينفع الدنيا ذبحُ إسحاق بالسكين؟ أما إقامة إسماعيل في مكة فنفعته هو والدنيا أيضًا، إذ أصبح إسماعيل معلّمًا عظيمًا للتوحيد، كما تمكنت الدنيا بواسطته من عبادة الله الأحد. فلو حذفتَ مكةَ من خريطة العالم لم يبقَ في الدنيا كلها مركز واحد لوحدانية الله تعالى، ولو محوتَ قربان إسماعيل من التاريخ لما كان هناك سببٌ لخلق الحماس في الناس لينذروا حياتهم لإعلاء كلمة الله تعالى.

إذًا، فإن القرآن الكريم يزيل غبار التحريف المتراكم على بيان التوراة للأحداث على مرّ القرون، ويعرضها على الدنيا بشكلها الحقيقي، وبالتالي يقدّم الدليل على

صدق قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.. أي أن أخفى خفايا السماوات والأرض لمحفوظة في علم الله تعالى.

ثم إن القرآن الكريم لا يسلّط الضوء على الحقائق التي يختلف فيها المسلمون وبنو إسرائيل فحسب، بل يكشف للعالم حقيقة الأمور التي يختلف فيها اليهود والنصارى. فمثلاً يقول اليهود بالإجماع أن المسيح (عليه السلام) وُلد – معاذ الله – ولادة غير شرعية، حيث يقول بعضهم أنه وُلد من نطفة يوسف النجار من دون زواج. (الموسوعة البريطانية مجلد ٥ ص ١٠٢ تحت: Celsus)، ويقول بعضهم أنه وُلد نتيجة علاقات غير شرعية بين مريم وجندي رومي اسمه بانسيرا؟ (الموسوعة اليهودية مجلد ٥ ص ١٧٠ تحت: Jesus). بينما يقول الإنجيل عن ولادة المسيح عليه السلام: "أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لما كانت مريم أمُّه مخطوبةً ليوسف قبل أن يجتمعا وُجدتْ حُبْلى من الروح القدس." (متى ١: ١٨)

إذًا، فهناك اختلاف كبير بين اليهود والنصارى حول ولادة المسيح، فجاء القرآن الكريم وفصل بين الفريقين بكلمات صريحة واضحة: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:٩٢).. أي أن مريم قد حافظتْ على كل منافذها من الوقوع في الإثم، فاتهامها بالفاحشة افتراءٌ شنيع لأنها حملتْ في الواقع بروح طاهرة نفخناها فيها. ثم هناك دعوى عيسى عليه السلام بأنه هو المسيح، ولكن اليهود ينكرون رسالته أصلاً، أما المسيحيون فبدلاً من أن يعتبروه رسول الله اتخذوه ابن الله، ولكن الإسلام عرض على العالم نظريةً صحيحة تتنافى مع موقف اليهود والنصارى كلهم، فبين أن اليهود مخطئون حيث كفروا بالمسيح كليةً، وأن النصارى أيضًا مخطئون إذ اعتبروه إلهًا، إنما الأمر الحق أن المسيح لم يكن إلا رسولاً إلى بني إسرائيل. (آل عمران: ٥٠)

وقال اليهود أن المسيح أصبح ملعونًا بموته على الصليب (تثنية ٢٣: ٢١، وغلاطية ١٣: ٣)، وقال النصارى أنه بعد موته على الصليب مكث في الجحيم ثلاثة أيام فداءً عن آثام الآثمين، ثم عاد إلى الحياة وصعد وجلس على يمين الله (رسالة بطرس الأولى ٣: ١٨، والموسوعة البريطانية تحت: Creed). ولكن القرآن الكريم أعلن أن كلا الفريقين

على الخطأ، فلم يمت المسيح على الصليب بل أُغمي عليه وهو على الصليب، فظن الناس أنه قد مات، والحق أنه قد أُنـــزل من على الصليب حيًا (النساء: ١٥٨)، وأنه لم يصعد إلى السماء بعد نجاته من الموت على الصليب، بل ذهب الله به إلى بلاد كشمير (المؤمنون: ٥١)، وأنه قد نشر دينه هناك مدة طويلة.

إذًا، فالقرآن الكريم يفصل بين اليهود والنصارى فيما اختلفوا فيه، كما يسلّط الضوء على ما يختلف فيه المسلمون وبنو إسرائيل، وهكذا يصير هدى ورحمة للناس.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.. أي أنه تعالى لن يرفع بالقرآن الكريم الخلافَ الموجود بين بني إسرائيل فحسب، بل سيقضي بحُكمه بين شتى طوائفهم وفرقهم، ويجعل الصادقين غالبين والكاذبين مغلوبين، لكونه تعالى: ﴿هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾. وبالفعل أصبح المسيحيون بعد نـــزول هذه الآية غالبين في كل مكان، بينما صار اليهود الكافرين بالمسيح عليه السلام مغلوبين. ولكن لما كانت غلبة المسيحية تمثّل خطرًا دائمًا على الإسلام وكانت مسؤوليات جسام ستلقى على المسلمين لنشر الإسلام، فقال تعالى إثر خبر غلبة المسيحية: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾.. أي عليك أن تستمر في إشاعة دينك متوكلاً على الله تعالى، لأن المسيحية وإنْ كانت على الحق في اختلافها مع اليهودية، إلا أن الحق المبين هو عند الإسلام فقط. فاتخذْ كل تدبير لنشر الإسلام موقنًا أن الله تعالى سيجعلك من الناجحين، وستصبح راية الإسلام في الدنيا أعلى من كل راية.

ولكن المؤسف أن المسلمين في هذا العصر قد فهموا التوكل فهمًا خاطئًا تمامًا، فظنوا أن التوكل هو أن لا يتخذ المرء أي تدبير لإنجاز أمور دينه بل يتركه لله لينجزها بنفسه. والغريب أنهم يُبدون هذا النوع من التوكل في أمور دينهم لا في أمور دنياهم. فمثلاً إذا أصيب قريب لهم بمرض بادروا إلى المستشفى للدواء والعلاج، ولم يجلسوا في البيت عاطلين محتجين بأن الله تعالى نفسه سيشفيه، وإذا مرض أحد منهم فلا يقول: لن يضربي مرض الملاريا أو الطاعون أو الكوليرا، بل

يهرع إلى العلاج فورًا، ويدفع أجرة الأطباء والدواء متخذًا كل تدبير ممكن بدلاً من الجلوس تواكلاً على الله تعالى. كذلك لن تجد أحد الطلاب يقول لا حاجة بي للالتحاق بالمدرسة وشراء الكتب أو الدراسة، فإني قد توكلتُ على الله حق التوكل، وسيجعلني من الفائزين. كذلك لو احتاج أحد منهم إلى بناء بيت فلن يقول، ليس بي حاجة لأن أشتري مواد البناء من لبن وطوب أو آتي بالمعماريين والعمال، فإن الله تعالى نفسه سيبني لي بيتًا. أو لو رجع أحدهم إلى البيت جائعًا فوجد زوجته لم تهيئ له شيئًا، فلما سألها الطعام قالت: لا حاجة بي لإعداده لأن الله تعالى سيمدّنا به إذ قد وعد أن يرزق كل حيوان وإنسان؛ أفتظن أنه سيفرح بأن زوجته متوكلة على الله حقًّا، أم يتميز غيظًا؟ ولربما يضربها بالعصا إذا كان من الهمجيين غير المهذبين. فبرغم هذه الحقائق كلها في أمور دنياهم يلجأ الناس إلى التوكل الزائف في أمور دينهم. حينما يتعلق الأمر بشؤون دنيانا من طعام وبيت ووظيفة وما إلى ذلك لا نلجأ أبدًا إلى هذا التوكل الزائف، بل نتخذ كل سبب خلقه الله لذلك. فمثلا برغم علمنا أن الله تعالى قد أعلن أن بيده الموت والحياة، والذلة والعزة، والضيق والرخاء، إلا أننا نسعى جاهدين لأن نتخذ كل تدبير ممكن ضروري لإنجاز أمور دنيانا فنتخذ كل سبب للحياة لنتجنب الموت، ونتخذ كل تدبير للعزة لنتجنب الهوان، ولا ندخر وسعًا لجلب المال لنتجنب الفقر، ولكن عندما يتعلق الأمر بالدين نقول بدون حياء: سينجز الله تعالى بنفسه أمور دينه ولا داعي للقلق.

كنت ذات مرة قادمًا بالقطار من لاهور في عهد الخليفة الأول ﵁، فركب معي في العربة أحد المتصوفين المشهورين، وكان يريد مني أن أشفع له عند بعض أفراد جماعتنا. فأخرج أثناء الحديث منديلاً فيه زبيب، فوضع المنديل أمامي وقال: تفضل وكُلْ. وكان هذا المتصوف قد نشر فتوى ضد جماعتنا بأن التعامل والحديث مع الأحمديين حرام قطعًا، ومن فعل ذلك أو اشترك في اجتماعاتهم فسخ زواجه وحل الطلاق من زوجته. وأتذكر جيدًا أنه بعد نشر هذا الرجل فتواه ذهب سيدنا المسيح الموعود ﵇ إلى سيالكوت وألقى هناك محاضرة. ولما وصلنا قريبًا من مكان

المحاضرة رأيت كبار المشائخ واقفين في الطريق حاملين فتوى هذا المتصوف وكانوا ينهون الناس عن حضور الاجتماع مهددين إياهم بفسخ النكاح، قائلين أن من ذهب لسماع محاضرة هذا الرجل أصبحت زوجته مطلقة، ومن زار الأحمديين أصبحت زوجته مطلقة، ومن سلّم عليهم أصبحت زوجته مطلقة! ورأيت أن بعض الناس كان يتضايق من قولهم ويقول: فليفسخ نكاحي فإني سأعقد القران ثانية بإعطاء روبية واحدة ورُبْعها لبعض المشائخ، أما حضرة المرزا فلن يأتي هنا كل يوم ولا بد أن أسمع خطابه، ثم يدخل مكان الاجتماع. لقد مدّ هذا المتصوف منديله أمامي ودعاني لتناول الزبيب بالرغم من أنه كان صاحب تلك الفتوى ضد الأحمديين، وبرغم أنه كان يعلم أني ابن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية. لقد كرهت أن آكل منه شيئًا بسبب فتواه، إلا أن الله تعالى قد أوجد لي عذرًا بفضله، وهو أنني كنت مصابًا يومئذ بالزكام والسعال، وأكل الزبيب يزيد هذا المرض. فاعتذرت إليه قائلاً: أرجوك أن تعذرني من أكل الزبيب لأني مصاب بالزكام. فقال: كلا لن يضرك أبدًا، ويمكنك أن تجرب. فرفضتُ وقلت: إني أعلم بالخبرة أن أكله سيضرني حتمًا. قال: كل هذا كلام فارغ، فإن الأمر كله بيد الله، ولا يكون إلا ما يشاء الله. قلت: لقد تأخرتَ كثيرًا في إعلامي بذلك، إذ لو أخبرتَني بذلك عندما كنا في لاهور لتجنبتَ أنت وأنا من الخسارة. قال: كيف؟ قلت: لقد أخطأنا نحن الاثنين حين اشترينا تذاكر القطار – كان قادمًا إلى "أمرتسر" وأنا إلى "بتالا"– لو علمنا هذه المسألة عندها لم نستأجر عربة حصان أو لم نشتر تذاكر قطار، لأن الله تعالى كان سيوصلك إلى أمرتسر ويوصلني إلى قاديان لأنه هو الذي يفعل كل شيء! قال: ولكن لا بد للإنسان من تدبير. قلت: وأنا أيضًا أتخذ التدبير، فلا آكل الزبيب في مرض الزكام.

إذًا، فإن الإنسان يتذكر اتخاذ التدبير ما دام الأمر يخصه، ولكن حين يخص الأمر دين الله تعالى فيقول بدون تردد: لا حاجة بي لاتخاذ أي تدبير لأن الله تعالى سينجزه بنفسه! لا جرم أن الله تعالى هو الذي سينجز شؤون دينه كلها، كما أنه هو نفسه ينجز شؤون دنيانا أيضًا في الواقع، إذ لا ننجح في شتى أمور الدنيا إلا

بفضله تعالى، وليس بمحض جهودنا، وإلا فيجب أن ننجح في كل أمر دائمًا، ولكنا ننجح في بعضها ونفشل في بعضها. فمثلاً هناك آلاف الطلاب الذين يجتهدون ويفوزون في الامتحانات، وهناك آلاف آخرون يجتهدون فيفشلون. وهناك آلاف الناس الذين يجتهدون وينالون العزة، وهناك آلاف آخرون يبذلون كل ما في وسعهم لينالوا العزة فيصبحون أكثر ذلاً وهوانًا من ذي قبل. فثبت أن الله تعالى هو الذي ينجز كل شيء، ولكن مما لا شك فيه أيضًا أن الأمر لو كان يتطلب من المؤمن اتخاذ تدبير و لم يتخذه، حلّ عليه عقاب الله وصار هدفًا لبطشه وعذابه.

لقد بين الله تعالى في القرآن الكريم مثالاً واضحًا لذلك فيما حصل بقوم موسى عليه السلام، فقد وعدهم الله تعالى بأنه سيعطيهم أرض كنعان، كما وعدنا الله تعالى أنه يجعلنا ملوك الدنيا، ولكن الله تعالى أخبرهم أيضًا أن سبيله أن يذهبوا ويقاتلوا أهل كنعان، فيفتحها الله على أيديهم. فلما أمرهم موسى عليه السلام بذلك قالوا له: لقد وعدنا الله تعالى بأرض كنعان، فعليه أن يفي لنا بوعده بنفسه، لماذا يدفعنا نحن إلى الهلاك؟ ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٢-٢٧).. أي اذهبْ أنت مع ربك وقاتِلا الأعداء فإذا فتحتَها أخبِرْنا فسوف ندخلها حتمًا!

وهل تعرف نتيجة قولهم هذا؟ لقد حرّم الله عليهم أرض كنعان أربعين سنة رغم وعده بإعطائهم إياها، وضرب عليهم الذلة والمسكنة، حتى مات كل أولئك القوم المعترضين على موسى تائهين في البراري، ثم أنجز الله تعالى وعده على أيدي ذرياتهم.

فثبت أن الأمور التي تتطلب اتخاذ التدابير من قِبل العباد لا تنـــزل نصرة الله بشأنها – رغم وعد الله وقراره ومشيئته وإرادته – ما لم تستعدّ الأمة كلها لتقديم التضحية في سبيلها، أما إذا ترددت في تقديم التضحية فلن ينفعها التوكل الزائف ولن يحالفها النجاح.

ورد في الحديث أن شخصًا سأل الرسول ﷺ مرة: يا رسول الله، أأعقِلُ ظلف بعيري أوّلاً ثم أتوكل، أم أتركه هكذا متوكلاً على الله؟ فقال النبي ﷺ: "اعقِلْها وتوَكَّلْ." (الترمذي: أبواب صفة القيامة).. أي عليك أن تقوم بالعمل أوّلاً ثم تترك

نتيجته لله تعالى. ومن أجل ذلك نجد الصحابة يعملون ليل نهار، وكان الرسول ﷺ نفسه يعبد الله تعالى حتى تتورم قدماه من طول القيام. فقالت له عائشة – رضي الله عنها – مرة: لماذا تعبد الله طويلاً وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال ﷺ: أفلا أكون عبدًا شكورًا لله تعالى؟ (البخاري: كتاب التهجد، باب با قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه)

فلو كان التوكل يعني أن يجلس المرء عاطلاً لكان النبي ﷺ أولى بذلك إذ كان أكبر المتوكلين، ولكن الواقع أنه ﷺ كان أكثر الناس عملاً. ولو كان هذا هو معنى التوكل وجب أن يكون أهل الجنة عاطلين، ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن أهلها سيكونون مشغولين بأعمال كثيرة حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾(يس:٥٦). ما دام الله تعالى يهيئ للمؤمنين كل شيء في الجنة كان المفروض أن يجلسوا فيها عاطلين كل الوقت، ولكن الله تعالى يقول عنهم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ ولفظ ﴿شُغُلٍ﴾ نكرةٌ ويراد به التعظيم، والمراد أنهم سيكونون مشغولين بعمل عظيم. والفرق الوحيد أن الإنسان لن يصاب في الجنة بالسأم والملل والنصب من العمل بل يفرح بقيامه ويشعر بالبشاشة والانبساط.

باختصار، إن المسلمين في هذا العصر يفهمون التوكل فهمًا خاطئًا تمامًا، فإذا كان الشيء بحسب رغبتهم قاموا به، وإذا لم يرغبوا فيه قالوا: نتوكل على الله. مع أنه لو كان هذا هو التوكل على الله لما كانت ثمة حاجة إلى صلاة وصوم وحج وزكاة وغيرها من الأحكام، بل كان يكفي المرء أن يقّر بالإيمان بلسانه فقط. فالمفهوم الصحيح للتوكل أن يأخذ المرء بالأسباب التي خلقها الله تعالى لإنجاز شيء، ثم يُنيب إلى الله تعالى ويقول: ربِّ، قد فعلتُ كل ما كان بوسعي، فإذا كان هناك تقصير في عملي فعوّضْ عنه بفضلك، وأْتِ بالنتيجة الطيبة لعملي متغاضيًا عن تقصيري وخطئي. ولو فعل ذلك حالفته نصرة الله تعالى، ونجح في كل شيء. أما الذي لا يحرك ساكنًا ويزعم أنه متوكل على الله تعالى فهو يسخر من التوكل ويجلب عليه سخط الله تعالى.

إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٨١﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٢﴾

التفسير: لقد قال الله تعالى من قبل لرسوله ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾، أما الآن فيبين أن من الناس من ينكر الحق مهما كان واضحًا بينًا، فكون هذا القرآن ﴿الحق المبين﴾ لا يعني بالضرورة أن الجميع سيقبلونه. ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾.. أي لن تستطيع أن تُسمع الذين قد ماتت قلوبهم وخلت من خشية الله ومحبته. ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.. ولن تستطيع أن تُسمع الذين لا يقدرون على سماع شيء، ولا سبيل لهدايتهم خاصةً إذا ما ولّوا مدبرين عمن يكلّمهم، إذ لا يعودون قادرين على فهم إشارته أيضًا. ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ﴾.. أي لا تستطيع أن تنقذ من الضلال من هو أعمى ولا يريد أن يتبع البصيرة، إنما تستطيع أن تُسمع الحق وتشرحه لمن يؤمن بآيات الله، فهؤلاء هم الذين يدخلون في الإسلام في نهاية المطاف.

وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٣﴾

شرح الكلمات:

تُكلِّمهم: كلّمه: حدّثه؛ وجرّحه. (الأقرب)

التفسير: أي عندما يصدر من السماء القرار بعقاب هؤلاء الموتى والصمّ والعمي روحانيًا، سيُخرج الله من الأرض دودة تجرحهم، وسننـــزل عليهم هذا العذاب لأنهم لم يوقنوا بآياتنا.

واعلم أن نبأ خروج دابة الأرض هذا قد أوضحه النبي ﷺ في أحاديث أخرى، وأخبر أن خروجها سيكون في آخر الزمان الذي هو زمن ظهور المسيح والمهدي (تفسير ابن كثير). كما بين النبي ﷺ أيضًا أنه عندما تشتد المعارضة ضد المسيح الموعود "فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم." (مسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال).. أي أن معارضي المسيح الموعود سيصابون بمرض الدمامل في رقابهم بأمر الله تعالى فيهلكون بها.

وعندما ندرس هاتين الروايتين معًا يتضح لنا جليًا أن دابة الأرض التي أخبر القرآن عن ظهورها هنا هي في الواقع مرض الطاعون الذي قد تفشى في زمن المسيح الموعود عليه السلام وأهلكَ مئات الآلاف من الناس.

وسبب هذا المرض دودةٌ تدخل في جسم الإنسان من الأرض، فيظهر دمّلٌ خطير في عنقه أو عند أصل الفخذ، ولذلك سمى النبي ﷺ هذه الدودة دابة الأرض وأيضًا النغَف. وبما أن النبي ﷺ قد اعتبر خروج دابة الأرض من علامات الزمن الأخير، فثبت أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إنما يشير إلى أولئك القوم الذين يكذّبون المسيح الموعود عليه السلام، ولن يروا آيات السماء لمرضهم الروحاني، ولن يسمعوا كلام الله تعالى جرّاء صممهم الروحاني، ولن يفعلوا الخيرات لحرمانهم من الحياة الروحانية. وسيبطش الله تعالى بهم من جراء معاصيهم فيسلّط عليهم الله دودة أرضية لتُهلكهم. لقد تردوا وأصبحوا ديدانًا أرضية بكفرهم بآيات الله، فيسلّط الله عليهم دودة من الأرض كعقاب.

فهذه نبوءة عظيمة قد تحققت في عهد المسيح الموعود عليه السلام. وقد أشارت إليها أنباؤه عليه السلام أيضًا بكل وضوح وجلاء. وبيان ذلك أنه لما وقع خسوف القمر بحسب نبوءة النبي ﷺ في الليلة الثالثة عشرة من رمضان وكسوف الشمس في اليوم الثامن والعشرين من رمضان نفسه أخبر الله المسيح الموعود عليه السلام أن الناس إذا لم ينتفعوا من هذه الآية و لم يؤمنوا به عليه السلام فسينـــزل عليهم عذاب شديد. فقد كتب عليه السلام بصدد هذه الآية ما نصه:

"وحاصل الكلام أن الخسوف والكسوف آيتان مخوّفتان، وإذا اجتمعا فهو تهديد شديد من الرحمن، وإشارة إلى أن العذاب قد تقرر وأُكّد من الله لأهل العدوان." (نور الحق الجزء الثاني، الخزائن الروحانية ص ٢٣٢)

وتحقيقًا لهذا النبأ ألقى الله في روع المسيح الموعود عليه السلام أن يدعو لنـــزول وباء عام حيث قال عليه السلام عام ١٨٩٤م في قصيدة عربية:

فلما طغى الفسقُ المـــبيدُ بسيلهِ تمنيتُ لو كان الوباءُ المتبِّـــرُ
فإنّ هلاك الناس عند أُولي النهى أحَبُّ وأَولَى مِن ضلال يُخسِّرُ

(حمامة البشرى، الخزائن الروحانية المجلد ٧ ص ٣٢٦)

ثم في عام ١٨٩٧م كتب حضرته عليه السلام ما تعريبه:

لقد تلقيت إلهامًا من الله تعالى: "يا مسيحَ الخلق عَدْوانا".. أي يا مسيح الخلق اهتمّ بمرضنا.

وأضاف بعد ذلك قائلاً:

"فلا ندري بأي وقت تتعلق هذه الأخبار ومتى تتحقق. فترون أنهم يموتون بالدعاء تارة ويحيون بالدعاء تارة أخرى." (سراج منير، الخزائن الروحانية المجلد ١٢ ص ٧٠-٧١)

عندما أُشيعتْ هذه النبوءة الأخيرة كان الطاعون قد تفشى في مدينة مومباي فقط، وكان انتشارها فيها قد توقف بعد سنة، فكان الناس فرحين أن الأطباء قد تمكنوا من إيقافه، ولكن أنباء الله تعالى كانت خلاف ذلك. فبينما كان الناس يعتبرون هجمة الطاعون هجمة عابرة، إذ كان قد خف واختفى من منطقة مومبي وكانت منطقة بنجاب محفوظة منه ما عدا قرية أو قريتين، نشر المسيح الموعود عليه السلام إعلانًا آخر قال فيه ما تعريبه:

"هناك أمر هام آخر أجدني مندفعًا لذكره هنا بدافع الشفقة على الإنسانية. وبرغم أني أعلم جيدًا بأن المحرومين من الروحانية سيضحكون علي بسببه ويستهزئون، إلا أني أرى كشفه للناس واجبًا عليّ شفقةً على الإنسانية، وهذا الأمر هو: أني رأيت في المنام اليوم ٦ فبراير/شباط ١٨٩٨م يوم الأحد أن ملائكة الله يغرسون في شتى مناطق البنجاب أشجارًا سوداء كريهة الشكل مخيفة المظهر

وقصيرة الطول، فسألت بعض هؤلاء الزارعين: ما هذه الأشجار؟ فقالوا: إنها أشجار الطاعون الذي سيتفشى في البلاد عن قريب. لقد اشتبه عليّ الأمر فيما إذا قالوا إن هذا المرض سيتفشى في فصل الشتاء القادم أم في الذي بعده، ولكن ما رأيته كان منظرًا مخيفًا جدًا. وقد تلقيتُ قبله إلهامًا عن الطاعون وهو: "إن الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم، إنه آوى القرية".. أي لن يزول هذا الوباء الظاهر ما لم يزُلْ وباء المعصية من القلوب." (أيام الصلح، الخزائن الروحانية المجلد ١٤ ص ٣٦٠-٣٦١)

وقد سجل حضرته عليه السلام في آخر هذا الإعلان أبياتًا فارسية وهي فيما يلي:

گر آں چیزے کہ مے بینم عزیزاں نیز دیدندے
ز دنیا توبہ کردندے بچشم زار وخوں بارے
خورِ تاباں سیہ گشت است از بدکاریٔ مردم
زمیں طاعوں ہمے آرد پئے تخویف وانذارے
بہ تشویشِ قیامت ماند ایں تشویش گر بینی
علاجے نیست بہرِ دفع آں جُز حسنِ کردارے
من از ہمدردی ات گفتم تو خود ہم فکر کن بارے
خرد از بہرِ ایں روزے است اے دانا وہوشیارے

(المرجع السابق ص ٣٦٣)

أي لو رأى أصدقائي ما أراه لتابوا عن حب الدنيا باكين. قد اسودت الشمس المضيئة من جراء سيئات العباد، كما أخرجت الأرض الطاعون تحذيرًا للناس. لو أمعنتم النظر لوجدتم أن هذه المصيبة هي كمصيبة القيامة، ولا علاج لها إلا صالح الأعمال. لقد ذكرتُ هذا الأمر بدافع الشفقة، فتدبر في الأمر أيها الإنسان العاقل الذكي إذ قد أُعطيت العقل لمثل هذا اليوم.

لقد تبين من هنا أن سيدنا المسيح الموعود عليه السلام قد تنبأ قبل عام ١٨٩٤م بنـــزول عذاب شديد، ثم أنبأ صراحة عن تفشي الطاعون، ثم قبل تفشّيه في الهند أخبر عن الدمار الذي سيخلفه الطاعون في منطقة البنجاب خاصة، واعتبره نموذجًا للقيامة، وأخبر أنه لن يختفي إلا إذا أصلح الناس قلوبهم.

وأما ما حدث بعد ذلك فلا يمكن وصفه بالكلمات. لقد بدأ الطاعون من مومباي، وكان الأقرب إلى القياس أنه سيكون شديد الوطء هناك، ولكنه ترك مومباي وخيّم في منطقة البنجاب، وكان شديد الوطء جدًا، حتى مات في بعض المرات ثلاثون ألف شخص في أسبوع واحد، ومات مئات الآلاف في سنة واحدة. لقد عُيّن مئات الأطباء لمكافحته، واختُرعتْ عشرات الطرق لعلاجه، ولكن بدون جدوى حيث صار الطاعون كلَّ سنة أشدَّ فتكًا من ذي قبل، ووقفت الدولة عاجزة حياله. وأدرك كثير من الناس أن هذا العذاب إنما نـــزل بسبب تكذيب المسيح الموعود عليه السلام، وبرؤية هذه الآية القاهرة قبِل مئاتُ الآلاف الحقَّ وآمنوا بالمأمور المبعوث من عند الله تعالى. ولم تخفّ وطأة الطاعون إلا بعد أن أوحى الله تعالى إلى المسيح الموعود عليه السلام ما تعريبه:

"ذهب الطاعون ولكن بقيت الحمى" (تذكرة: الطبعة الثالثة ص ٥١٢ الهامش، تاريخ الإلهام: ٢٨ إبريل/نيسان ١٩٠٤). وبعدها أخذ الطاعون يخفّ ويختفي باستمرار.

إن هذه الآية تبلغ من الوضوح والجلاء بحيث لا يسع المؤمن والكافر إلا تصديقها، ولو أنكرها أحد عنادًا ومكابرة فلا شك أنه يستحق الرثاء. أما الذي عنده عين مبصرة فيمكن أن يرى بجلاء ما يلي:

أولاً: لقد تم الإخبار عن الطاعون قبل تفشّيه بمدة طويلة، مع أنه ليست هناك وسيلة طبية للإنباء عن الأمراض قبل تفشيها بهذه المدة الطويلة.

ثانيًا: لقد تم الإعلان قبل ظهور الطاعون أنه لن يكون مؤقتًا هذه المرة، بل سيظل يصول ويهاجم سنوات متتالية.

ثالثًا: لقد قيل قبل تفشّيه أيضًا أنه سيشتد في منطقة البنجاب خاصة. وهذا ما أكدته الأحداث فيما بعد إذ تفشّى في البنجاب خاصة وكان أكثر فتكًا بأهلها مقارنة بالمناطق الأخرى.

رابعًا: لقد أعلن الأطباء بالتكرار أنهم قد سيطروا على هذا المرض، ولكن المسيح الموعود عليه السلام أخبر الناس أنهم مهما فعلوا فإن وطأة الطاعون لن تخفّ ما لم يتم علاجه من عند الله تعالى. وهذا ما حصل بالفعل، إذ ظل الطاعون يشتد ويشتد طيلة تسع سنوات على التوالي.

خامسًا: وفي النهاية رحم الله العباد ووعد بكسر حدة الطاعون فأخبر المسيح الموعود عليه السلام: "ذهب الطاعون ولكن بقيت الحمى". وبالفعل بعد هذا الوحي الإلهي أخذ الطاعون يخفّ، وتفشّى مرض الحمى واشتد في منطقة البنجاب التي لم يخلُ منها بيت واحد، حتى اعترفت الحكومة في تقاريرها الرسمية بأنها حمى غير عادية.

باختصار لقد أخبر الله في هذه الآية أنه بعد إقامة الحجة على الناس بالآيات السماوية والأدلة العقلية سيرسل لعقاب الموتى والصم والعمي الروحانيين دابة من الأرض تكلّمهم وتجرحهم إذ لم يؤمنوا بآيات الله.

لقد صرح المسيح الموعود عليه السلام في كتبه أيضًا أن الله تعالى قد ألقى في روعه أن دابة الأرض هي الطاعون، وقد أثبت حضرته ذلك بشتى الأدلة والقرائن. (نزول المسيح، الخزائن الروحانية المجلد ١٨ ص ٤١٥-٤٢١)

وجدير بالذكر أن نبأ خروج دابة الأرض لا يُنبئ عن الطاعون فحسب، بل تُنبئ عن اختراع المجهر أيضًا، إذ كان من المستحيل بدونه أن يُعرف أن دابة تسبب هذا المرض، إذ كان الناس قبل اختراع المجهر يُرجعون كل مرض إلى أربعة مواد في البدن الإنساني وهي: البلغم، والصفراء، والسوداء، والدم.

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٤﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٦﴾

التفسير: أي اذكروا ذلك اليوم الذي سنقيم فيه جماعة كبيرة من كل قوم يكفرون بآياتنا، ثم نوزعها في شتى الفرق.. بمعنى أن الإلحاد سيغزو في الزمن الأخير أتباعَ كل دين وستميل طائفة من كل قوم إلى الإلحاد واللادينية، كما نرى في هذا العصر، وستستمر هذه الظاهرة إلى أن يصدر القرار بعقابهم ويُبلَّغوا من عند الله تعالى بأنهم قد كفروا بآياته دون أن يتدبروها حق التدبر ويختبروا أدلة صدقها حق الاختبار. وإذا كان هذا غير صحيح فماذا كانوا يفعلون إذًا؟

لقد بين الله هنا أنه تعالى عندما يكشف صدق الإسلام على يد مأموره في الزمن الأخير ستهبّ شتى الأمم لنشر الإلحاد في الدنيا باسم العلم والثقافة، وستنقسم إلى فئات مختلفة، أي ستتشكل شتى المؤسسات والجامعات والاتحادات التي ستقوم بإنكار الدين الحق. مما لا شك فيه أن منكري الدين قد وُجدوا في العصور الماضية أيضا، ولكنا لا نجد في الماضي أحزابًا ونقابات ومؤسسات للمعارضة المنظمة. أما في هذا العصر فتجد نقابات لكل فئة من التجار والصنّاع والعمال والمستثمرين وغيرهم حتى تجد عصابات منظمة للصوص الذين يختطفون النساء والأولاد. كما أن الكفر أيضًا يهاجم الإسلام اليوم هجومًا منظمًا. ولكن إذا كان الشيطان يعمل على تنظيم جنوده فإن ملائكة السماء ليسوا صامتين على ذلك، بل يتأهبون للقضاء على جنوده، ولذلك يقول الله تعالى هنا: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ﴾.. أي سيحل العذاب بديارهم ويتحقق ما أخبر الله به.. أي سيصبح الإسلام غالبًا، وسيتم القضاء على الكفر للأبد، فتصاب ألسنتهم بالعي

والحصر، وسيصلّي على محمد ﷺ ويسلّم عليه من كانوا يسبّونه ويشتمونه من قبل، أو سيُهلكون ويُبادون.

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

التفسير: أي ألم يفكر المسلمون أننا لم نأت عليهم بالليل – المراد من الليل فترة البُعد عن عهد النبوة – إلا ليستعيدوا قواهم فيُشعلوا القناديل في كل مكان لتبديد الظلام، ولكنهم لم يستغلّوا هذه الفرصة العظيمة للثواب؛ فالآن سنضيء عليهم النهار من جديد.. أي سنبعث مأمورًا من عندنا، وسيَطلع عليهم هذا النهار ليميزوا بين الحق والباطل، ولكن لن ينتفع منه إلا المؤمنون، أما الذين قد ماتت قلوبهم فيظلون في ظلماتهم يعمهون.

لقد نبّه الله تعالى بذكر ظاهرة تناوب الليل والنهار هنا إلى أن الإنسان لا يستطيع بفطرته أن يعمل بدون انقطاع، ولو أُجبر على العمل باستمرار لانهار وسقط مغشيًا عليه بعد فترة. والحق أن الله تعالى قد جعل الليل ليغطي به ضعف الإنسان، حيث يستعيد في الليل القوة والنشاط فيصلح لاستئناف عمله ثانيةً.

ونفس الحال بالنسبة للرقي الروحاني، إذ يأتي على المرء أوقات من القبض الروحاني وأوقات من البسط الروحاني.. أي يأتي على المؤمن العادي أيضًا وقت يشعر فيه أنه قد وصل إلى الله تعالى وأنه ماثل أمام ربه الذي يتجلى عليه بكل عظمته وجلاله وجبروته، ثم يأتي عليه وقت آخر يحاول فيه إقامة صلاته التي قد انهارت، فيحاول إقامتها ثانية، فتنهار مرة أخرى، فيقيمها ثالثة وهلمّ جرًّا. وهذا الأمر ليس خاصًا بالمؤمن العادي فحسب، بل يمرّ بهذه الحالة كبار المؤمنين وصغارهم كلٌّ بحسب درجته، فتأتي عليهم حالات القبض والبسط روحانيًا كالليل والنهار. ولو ظل المؤمن في حالة القبض باستمرار بدون البسط لمات قلبه وخلا من

الروحانية، ولو ظل في حالة البسط دائمًا لقام بالعبادة عادةً وتقليدًا فحسب، وخلت حسناته من النية والإرادة والعزيمة؛ فلكي لا يفقد الإنسان مقامه الحقيقي ويقوم بالحسنات عن إرادة وعزيمة ونية، ولا يفقد التركيز في العبادة، تأتي على المؤمنين كلهم صغارًا وكبارًا موجاتٌ من الروحانية مرتفعة ومنخفضة كما يتناوب علينا الليل والنهار، فيرتفع كل واحد منهم عن مقامه مرةً وينخفض أخرى، ولكنه لا يزال يزداد رفعةً عند كل ارتفاع وعند كل انخفاضٍ، فظاهرة القبض والبسط هذه تنهض به إلى أعلى دائمًا لا إلى أسفل.

وإن ظاهرة الارتفاع والانخفاض هذه لا تختص بالأفراد فحسب، بل تأتي على الأمم أيضًا، فحينًا تخيّم عليهم ظلمات البلايا، وحينًا يهطل عليهم مطر رحمة الله، وتارة تطلع عليهم شمس النجاح، وأخرى يُخيّم عليهم ليل الفشل، ومرةً تجد فيهم حماسًا للارتقاء والازدهار، وأخرى يركنون إلى الكسل. ولكن لا تُصاب الأمة بالتردي والانحطاط ما دام انخفاضها وارتفاعها ضمن حد مناسب، لأن حالة القبض والبسط تأتي على كل فرد وقوم. إنما يصاب إنسان أو شعب بالخراب والفساد عندما يسقط مقامه. وهذا هو الأمر الذي قد نبهنا الله تعالى إليه بذكر ظاهرة الليل والنهار، فبيّن أن من واجبنا أن ننتفع بالليل والنهار كليهما، فإذا أتى علينا القبض فيجب أن يزيدنا رقيًا، وإذا أتى علينا البسط فيجب أن يزيدنا أيضًا رفعة.

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾

شرح الكلمات:

فزِع: خاف وذعر. (الأقرب)

داخرين: دخَر ودخِر دخُورًا ودَخَرًا: ذلَّ وصغُر. (الأقرب)

التفسير: لما كان الصُوْرَ يُنفَخ فيه لجمع الجيوش فيبدو أن نفخ الصور هنا جاء على سبيل المجاز، حيث بين الله تعالى أنه يوشك أن يأتي على الناس يوم تقف فيه الشعوب وجهًا لوجه، فيفزع كل من في السماوات والأرض. ويبدو أن هذه الآية تتحدث عن الطائرات الحربية والقنابل الذرية حيث تحلق الطائرات في جوّ السماء، وتلقي القنابل الذرية التي تنفجر على الأرض، فتنشر الدمار بين أهلها، بينما تتصاعد موادها النارية في جوّ السماء.

أما قوله تعالى: ﴿إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ فبين الله تعالى فيه بأن هذا الدمار سيكون شاملا ولا شك، إلا أن باب الدعاء سيظل مفتوحًا، وأن الذي يُرضي ربه سيُحفظ من هذا الدمار.

لا جرم أن العلماء قد اكتشفوا سلاح الموت هذا بجهودهم ومكائدهم، ولكن الله الذي أقام دين الإسلام يملك الموت والحياة أيضًا. إن هؤلاء القوم يظنون أنهم بامتلاكهم سلاح الموت قد أصبحوا حاكمين على الدنيا، ولكن الحاكم الحقيقي هو من يملك الموت والحياة كليهما، والذي أخبر الناسَ سلفًا أنهم لو ظلوا يدعونه تعالى فسوف يخلق الأسباب التي تحميهم من ويلات هذا السلاح الفتاك. لا شك أن القنبلة الذرية تبدو وكأنها من آثار القيامة، ولكن الله تعالى لم يجعل القيامة بيد روسيا أو أمريكا، بل جعلها بيده هو ﷻ. فقبل بضعة سنوات قابلني عالم روسي كان مديرًا لمعهد أبحاث القنبلة الذرية، فقلت له: تدّعون أنكم تعملون لخير الإنسانية، ولكن ما فائدة القنبلة الذرية التي اخترعتموها. فلو ألقتها روسيا على أمريكا لدُمّرت، ولو ألقتْها أمريكا على روسيا لهلكت، وماذا عسى أن ينفع الناس دمارُ أمريكا أو روسيا؟ عليكم أن تُعملوا فكركم فيما ينفع الناس وتكتشفوا شيئًا مضادًّا للقنبلة الذرية لحماية العالم من دمارها. فقال: لم نستطع اكتشاف هذا الشيء المضاد ولا يخطر ببالنا.

الحق أن الشيء المضاد للقنبلة الذرية قد جعله الله بيده، وعندما يريد إنقاذ الناس من دمارها سيمكّن الناس من اكتشاف سلاح مضاد لها. وتوجد في مجموعة

الإلهامات المنشورة لسيدنا مؤسس الجماعة الإسلامية عليه السلام أعدادٌ وبجنبها أشكال (تذكرة: الطبعة الثالثة ص ١٩٥)، ويرى بعض العلماء (Scientists) من جماعتنا أنها أشكال مشابهة لتصميم القنبلة الهيدروجينية. وهذا يعني أن الله تعالى قد نبه المسيح الموعود عليه السلام قبل اختراع هذه القنابل المدمرة بحوالي ستين سنة بأن شيئًا كهذا سيُخترع عن قريب، ثم مكّن عز وجل العباد من اختراعه فعلاً، وما دام الأمر كذلك فإن الله تعالى قادر على أن يُهيئ أسباب نجاة الناس من دمارها أيضًا.

وقد تلقيتُ ذات مرة نبأً عن اختراع غاز معين. فقد رأيت في الرؤيا أنني جالس في غرفة، فألقى فيها أحدٌ غازًا، فلما شممته قلت: فيه رائحة الكلورين، فجريت إلى الخارج، فزال أثر الغاز عني وعن الناس الآخرين.

ولما قصصت رؤياي هذه لبعض العلماء أخبروني أن الغاز الذي يسبب الغشيان يُصنَع من الكلورين، ولكن الغاز الذي رأيتُه في المنام كان يسبب إغماء مؤقتًا.

وأفهم من هذه الرؤيا أيضًا أن الله تعالى سيهيئ بفضله من الأسباب ما يمكن من الانتصار على العدو بدون أن ينشر دمارًا عامًا، ولكن ليس سبيله إلا التوجه إلى الله تعالى والاستعانة به بالدعاء والابتهال.

عندما ذهبت إلى أوروبا للعلاج أقامت جماعتنا بلندن مأدبة طعام على شرفي اشترك فيها شخصيات مرموقة كعمدة لندن والسفير الباكستاني وأعضاء من البرلمان البريطاني. فقلت للأوروبيين في كلمتي إن القنبلة الذرية قد بثّت الذعر في قلوب الناس، ويتساءلون ما السبيل إلى سلام العالم الآن؟ عليهم أن يعلموا أنه لم يكن عند الناس قبل عشرين سنة أي علم بالقنبلة الذرية، ولم يعرفوا أن اكتشاف اختراع كهذا ممكن، ولكن العلوم تتطورت وأدّت إلى اختراع القنبلة الذرية؛ فإذا كان الله تعالى هو الذي قد وهب عباده علم اختراع القنبلة الذرية، فكيف يستحيل عليه أن يرشدهم إلى اكتشاف شيء مضادّ لها؟ لقد قلتُ لهم إنني رجل دين، ولو سُئلت ما إذا كان اكتشاف شيء مضاد للقنبلة الذرية ممكن أم لا، لقلت: نعم، لأن الله تعالى نفسه وهب للعباد علم القنبلة الذرية، وليس بمستبعد عن فضله تعالى أن يهب لهم الآن علم اكتشاف مضاد لها، ولكن السبيل لجلب فضل الله تعالى أن

يتوجه الناس إلى ربهم ويدعوه موقنين بأن الذي قد وهب لعباده علم القنبلة الذرية سيُمدّهم بعلم اكتشاف مضاد لها وسيحمي الناس من ويلاتها.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ فبين فيه أن جميع الناس سيحضرون الله تعالى مُذعنين منقادين، الكافرون نتيجة العقاب والمؤمنون نتيجة الإيمان واليقين.

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

التفسير: ليس المراد من قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أن الجبال تمر منفصلة عن الأرض، بل المعنى أنها تتحرك مع حركة الأرض كما يتحرك السحاب مع حركتها.

مما لا شك فيه أن هذه الآية تدل بظاهرها على حركة الجبال حيث شُبّهتْ حركتها بحركة السحب، ولكنها تنطوي على نبأ هلاك الدول الكبيرة أيضًا، حيث أخبر الله المسلمين أنهم سيرون حولهم حكومات قويةً جدًا وسيظنون أنها لن تهلك لقرون طويلة، ولكن الله تعالى سينسفها لتوطيد عظمة الإسلام نسفًا فلا يبقى لها أثرٌ. وللتأكيد على ذلك قد نبه الله تعالى إلى ما تفعله الرياح بالسحب، وبين أن الرياح كما تُزجي السحب كذلك إذا هبّت رياح تأييد الإسلام من عنده تعالى فستطير دول الكفر والشرك الكبيرة فلن يُرى لها أثر. ولكن هذا لن يتم بتدابير البشر، بل سيتم بيده تعالى إظهارًا لقدرته وعظمته.

ثم قال الله تعالى في الأخير: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.. أي أن هذا الانقلاب العظيم لن يحدث إلا إذا أحدثتم أيها المسلمون في أنفسكم انقلابًا، أما إذا لم تغيّروا ما بأنفسكم، وكنتم في عداد الظالمين عند الله تعالى، فلماذا يأتي بظالم ليحل محل ظالم؟ إنما ينسف الله تعالى هذه الجبال إذا عملتم بأحكام الإسلام وحاولتم الفوز بحبه تعالى ورضاه.

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾

شرح الكلمات:

كُبَّتْ: كَبَّ الإناءَ كبًّا: قلبه على رأسه، وكَبَّ زيدًا على وجهه ولوجهه: صرَعه. (الأقرب)

التفسير: تتناول هذه الآية قضيةً هامةً من تعاليم الإسلام. ذلك لأن نظرية النجاة التي تقدمها الديانة الهندوسية الآرية هي أن الله تعالى عندما يجزي العباد على أعمالهم يستبقي شيئًا من ذنوبهم ليعاقبهم عليها فيما بعد. بمعنى أنه تعالى يهب الروح الإنسانية النجاة أوّلاً ويُدخلها الجنة، ولكنه بعد فترة يُخرجها من الجنة بسبب بعض ذنوبها التي لم يعاقبها عليها، فيعاقبها بإلقائها في سلسلة من الولادات المختلفة التي لا نهاية لها (موسوعة الأديان: تحت: Transmigration). وكأن الله تعالى – والعياذ به – يعامل عباده كالمرابين الهندوس الذين عندما يستردّون من الناس أموالهم مع الربا يتركون عندهم جزءًا منها لكي يتراكم عليه الربا فيأخذوه منهم أضعافًا مضاعفة مرة أخرى. فالهندوس يظنون أن الله تعالى أيضًا يجزيهم على حسناتهم أوّلاً، ثم يُرجعهم إلى الدنيا ثانية بسبب بعض أعمالهم السيئة التي لم يعاقبهم عليها من قبل ليمرّوا بولادات مختلفة لا نهاية لها. ولكن القرآن الكريم يرفض هذه العقيدة رفضًا باتًا، ويعلن أن الله الذي هو خالق الأرواح والمادة قادر أن يخلق منها ما يشاء بمجرد أن يقول ﴿كُنْ﴾، وأنه تعالى ليس بحاجة إلى التلاعب مع الأرواح كما يقترح الآريون الهندوس.

كما يُبين الإسلام أن حسنات المرء محدودة بلا شك، ولكن نيته لفعل الخير ليست محدودة، ولذلك سيجزيه الله تعالى أكثر من عمله بكثير، وأنه سيهيئ

للمؤمنين الأمان يوم الجزاء – سواءً في الدنيا أو في الآخرة – فلن ينظر إلى قلة بضاعتهم بل سيكتب لهم النجاة الأبدية بفضله. أما الذين يعملون السيئات فسيُلقون على وجوههم في النار ويقال لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.. أي أن جزاء السيئة يكون مثلها لا أكثر منها. وقد زاد الله هذا الأمر إيضاحًا في آية أخرى فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:١٥٧). فإن أسوأ الناس عملاً وأشدّهم عداءً للحق أيضًا يستحق رحمة الله بحسب هذه الآية، وستُفتح عليه أبواب الجنة في النهاية.

لقد بينتُ هذا المعنى نظرًا إلى الحياة الآخرة، أما من منظور الحياة الدنيا فالمراد أن الذين يضحّون لإحياء الإسلام سينالون جزاءً محيرًا تتضاءل أمامه تضحياتهم. لا غرو أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي – رضوان الله عليهم أجمعين – قد قدّموا في سبيل الإسلام تضحيات جسيمة عظيمة، ولكني أرى أنهم لو رجعوا إلى الدنيا اليوم لاعتبروا تضحياتهم أحقر وأضألَ مما أعطاهم الله من العزة والصيت الخالدين، ولقالوا إنهم لم يقدموا أي تضحية في الحقيقة، لأنهم لو عادوا إلى الحياة اليوم ومرّوا بالشوارع لسمعوا الناس يقولون: قال أبو بكر كذا، وقال عمر كذا، وقال عثمان كذا، وقال علي كذا، كما رأوا أن مجموعةً من الناس يحملون العصي والهراوات وقد احمرت عيونهم وإذا ما سُئلوا عن سبب غضبهم قالوا: إننا غاضبون لأن فلانًا قد سبّ أبا بكر، أو أساء إلى عمر، أو شتم عثمان، أو أهان عليًا – رضوان الله عليهم أجمعين.

ورد في الحديث أن صحابيًا استُشهد في غزوة، فوجد النبيُّ ﷺ ابنَه يمشي منكسر النفس مطأطئ الرأس حزنًا، فسأله النبي ﷺ: ما بك؟ قال: يا رسول الله، لقد استُشهد أبي وترك أولادًا صغارًا وقد أهمَّني شأنهم. فقال ﷺ: لو علمتَ ما أعطى الله أباك من الجزاء لما حزنتَ. لقد أحضرَ الله روح أبيك وقال له: قد رضيتُ عنك يا عبدي، فاسأل ما بدا لك، فسوف أحقق لك اليوم كل ما تتمناه. فقال أبوك: رب، ليس لي أُمنية إلا أن تُحييني وتُرجعني إلى الدنيا ثانية لأُقتَل في سبيل الإسلام. فقال الله تعالى: أُقسم بنفسي بأنه لولا كلمةٌ سبقتْ مني بأني لن أُرجع أحدًا إلى

الدنيا بعد الموت لحققتُ أمنيتك. (الترمذي: أبواب التفسير، قوله تعالى: ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا)

إذًا، فإن الإنسان يرى تضحياته قبل ظهور نتائجها شاقّةً ثقيلةً عليه، ولكنها عند ظهور نتائجها تبدو له ضئيلة حقيرة الشأن. ألم تر أن كل طالب يعتبر الذهاب إلى المدرسة مصيبةً، ولكنك لن تجد طالبًا يتأسف على ما بذله من جهود في دراسته، بل عندما تظهر نتيجة جهوده ويتقلد مناصب مرموقة يعتبر جهوده حقيرة جدًا.

هذا هو المعنى الذي بينه الله تعالى في هذه الآية حيث أخبر أن مَن عمل صالحًا جزاه الله على حسناته جزاءً يفوق تضحياته آلاف المرات، ولكن الذي يقف عقبةً في سبيل هذه الخطة الإلهية سيُلقَى على وجهه، وستحرقه نار جهنم المتمثلة في فشله الذريع، وسيصبح مع ذريته محرومًا من بركات الله تعالى.

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٢﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٣﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه قد اتخذ شتى الأماكن مركزًا لتجلياته على مر العصور، فتارةً تجلّى بالجودي بواسطة نوح، وأخرى تجلّى بمكة المكرمة بواسطة إبراهيم، وحينًا ظهر بسيناء بواسطة موسى، وحينًا آخر ظهر بجبل الزيتون بواسطة عيسى، أما أنت يا محمد (ﷺ) فقل: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾.. أي أنني مأمور بأن أتّبع التجلي الإلهي الذي ظهر بواسطة إبراهيم في مكة التي شرفها الله وحماها، وأن أُعلن أن كل شيء بيد الله، وأنني أُمرت أن لا

أكتفي بالكلام وثرثرة اللسان فقط، بل أُمرت ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.. أي أن أُقدّم نموذجًا عمليًا للطاعة والاستسلام.

والجدير بالذكر هنا أن الإسلام اسم لذلك الدين الذي جاءنا به نبينا ﷺ، ولا يُطلَق اسم "المسلمون" إلا على الذين آمنوا بالدين الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ واعتبروه سيدًا وإمامًا لهم. بيد أن القرآن الكريم قد أطلق اصطلاح "المسلمون" على الأنبياء الآخرين وأتباعهم الصادقين أيضًا (آل عمران ٦٨، يوسف ١٠٢، البقرة ١٢٩و١٣٣). والظاهر أن هؤلاء القوم لا يُسمَّون مسلمين بسبب إيمانهم برسولنا ﷺ إذ لم يكن الشرع الكامل أي القرآن الكريم قد نـــزل في زمنهم، كما لم يكن النبي ﷺ قد بُعث عندئذ. فإطلاق القرآن على هؤلاء القوم مصطلح "المسلمون" يدل صراحةً على أن للإسلام مفهومين: أحدهما أن المسلم من يؤمن بالرسول ﷺ، وثانيهما أن المسلم من يطيع وينقاد؛ وبحسب المفهوم الثاني، فكل من كان مطيعًا ومنقادًا سواءً لآدم أو لنوح أو لإبراهيم أو لموسى وعيسى - عليهم السلام - كان مسلمًا. أما نحن المسلمين فإنا مسلمون من جهتين: أوّلاً لأن الله تعالى قد سمى أتباع نبينا ﷺ مسلمين، وثانيًا: لكون أتباعه ﷺ متميزين عن أتباع كل نبي في الدنيا في التحلي بروح الطاعة والانقياد. إذًا، إن أتباع النبي ﷺ يفضُلون على أمم الأنبياء الآخرين من حيث إنهم مسلمون مزدوجون؛ فإنهم مسلمون لأنهم مطيعون كجماعات الأنبياء الآخرين، بيد أن الله تعالى قد سماهم المسلمين على وجه الخصوص أيضًا (الحج: ٧٩).

والحق أن الله تعالى لا يسمي أحدًا باسم على سبيل التفاؤل كما يسمي الناس أولادهم بأسماء جيدة تفاؤلاً، بل إن ذلك الإله القادر القوي لا يسمي قومًا باسم خاص إلا إذا كانوا متصفين بتلك الصفات حقًّا. إذًا، فإطلاق اسم "المسلمين" علينا من قِبل الله تعالى لا يتطلب منّا السعي للتحلي بالصفات التي يدل عليها هذا الاسم فحسب، بل فيه تأكيد بأن أتباع محمد ﷺ كلما سعوا للتقدم ماديًا وروحانيًا متحلين بأعلى مستوى من الطاعة والانقياد أعطاهم الله الدرجات العلى. إذًا، فإنما الإسلام الحقيقي أن نتحلى بروح الطاعة والإذعان بحيث يستحيل علينا اتخاذ أي

خطوة خلاف مشيئة الله تعالى ورضاه حتى لا نكون مسلمين بالاسم فقط، بل يشهد عملنا وسلوكنا على أننا نستحق هذا الاسم بجدارة، وأن قيامنا وقعودنا وحركتنا وسكوننا تجسيد لهذا الاسم.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.. أي قل لقد أُمرت أيضًا أن أقرأ القرآن على الجميع لأضمهم إلى الإسلام، فمن اهتدى فإنما ينفع نفسه، ومن ضلّ فإنما أُمرت أن أعلن أنني لن أُكره أحدًا على الإيمان، بل سأقوم بتبليغ رسالة الله، وكل واحد حرٌ بعد ذلك في أن يؤمن أو يكفر.

وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

التفسير: أي قُلْ إني مأمور من عند الله تعالى بأن أقول أن الحمد كله لله.. بمعنى أن الإله الذي يقدمه الإسلام إله حي قوي، فقد أرى آياته في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وصالح ولوط وعيسى، ولم يزل يري آياته لما بعث محمدًا ﷺ تأييدًا له، والآن لما جاء زمن انحطاط المسلمين بعث المسيح الموعود عليه السلام لإحياء الإسلام ثانية، وبدأ يُظهر آيات قدرته وجلاله من جديد. فالحق أن الله وحده يستحق الحمد كله الذي قد دلّل في كل عصر على أنه حيٌّ، وأرى وجهه في كل زمان من خلال آياته. لو أن الله تعالى امتنع عن إراءة آيات قدرته بعد زمن آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى أو داود أو سليمان أو عيسى فكيف يمكننا أن نقول الحمد لله؟ إنما يصح قولنا الحمد لله إذا رأينا آيات الله البينات في أنفسنا وتجلت قدرته في كل عصر وزمان، ولذلك قال الله تعالى: قل للعالم إن الإسلام يقدم للناس إلهًا حيًا، وإذا أنشأتم الصلة معه سيريكم آيات ترون بها وجهه سبحانه وتعالى بعيونكم الروحانية.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.. أي أنه تعالى يعلم أنكم تائهون في الظلمات، ومقرنون بأصفاد التقاليد والعادات، فسوف ينـــزل بنفسه من السماء لتحريركم، ويُريكم آياته التي ترونه بها ماثلاً أمامكم.